دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

الخدمة

للأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

مقالات تصلح للشباب والخدام

الخدمة

(ثلاثة أجزاء معاً)

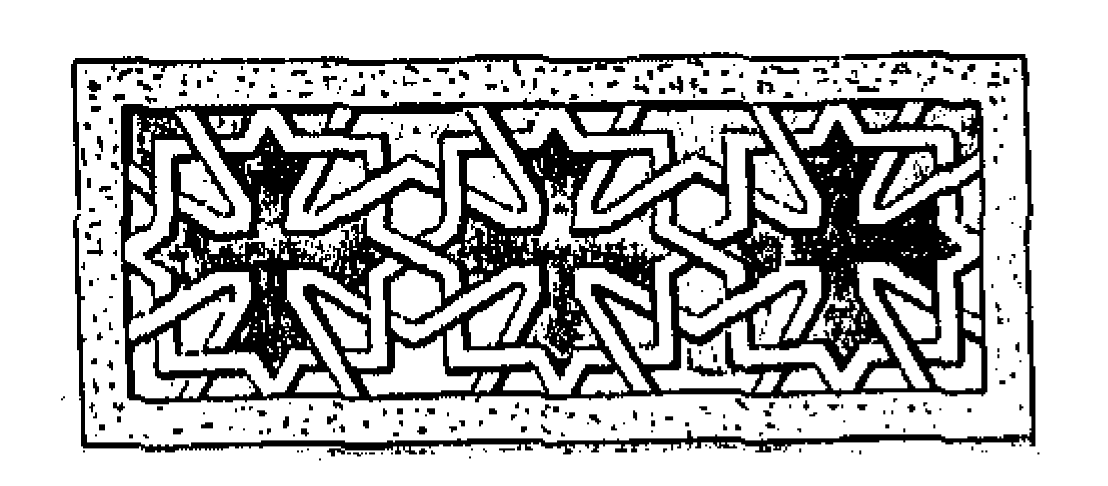
للأب متى المسكين

كتاب: الخدمـة.
المؤلف: الأب متى المسكين.
الطبعة الأولى: الجزء الأول ١٩٦٥. الجزء الثاني ١٩٦٩. الجزء الثالث ١٩٧١.
الطبعة الثانية: الجزء الأول ١٩٧٠. الجزء الثاني ١٩٧٥. الجزء الثالث ١٩٧٥.
الطبعة الثالثة (٣ أجزاء معاً): سبتمبر ١٩٨٠.
الطبعة الرابعة (٣ أجزاء معاً): ديسمبر ١٩٨٢.
مطبعة دير القديس أنبا مقار ــ وادي النطرون.
صندوق بريد ٢٨٧٠ ــ القاهرة.

رقم إيداع دار الكتب: ٥٢٩٧ / ٨٢
رقم الإيداع الدولي: ٩ ــ ٨٠ ــ ٧٣٢٠ ــ ٩٧٧

المحتويات

خاص / عام



مقدمة

يتحتم علينا ونحن نقدم هذه المقالات أن ننبه القارىء إلى حقيقة غاية في الأهمية وهي الفرق الكبير بين التعليم بمفهومه الحديث الآن و بين الخدمة في مفهومها المسيحي الأصيل . أما التعليم حتى ولو كان في الأمور الروحية فهو يختص بتهذيب الفكر ليتشبع بأسلوب الإنجيل وتدريب الملكات الإبداعية كالألحان والصلاة وتكوين الخبرات والمهارات كالكلام والوعظ وتكديس المعلومات سواء في التاريخ أو الطقس أو اللاهوت ، وهذا بالتالي ينتهي كله إلى الإعلاء بالشخصية على أساس الكفاءة الذاتية والتفوق على الآخرين في الأمور الروحية .

وأما الخدمة فهي تختص بوعظ النفس وتبكيتها وضبط الغرائز والسيادة عليها لإطلاق الروح من عبودية الأهواء والنزوات والدخول في حالة توبة نشطة دائمة لتقبُّل نعمة الله . وهذا بالتالي ينتهي إلى تنازل عن الذات وتسليم النفس لله و بلوغ حالة من الصدق في السلوك مع الناس والأمانة في العبادة لله مع خشوع وتقوى .

إذن ، فالتعليم بمفهومه و واقعه الآن يتمركز حول الذات ، وهو ــ بدون الخدمة ــ ينفخ صاحبه حسب اصطلاح الإنجيل (*) ، أما الخدمة فتتمركز حول الروح وهي تملأها خشوعاً وحباً واتضاعاً .

لذلك ، أصبح لزاماً علينا أن نوجه الأنظار إلى ضرورة الخدمة الروحية وإلا أصبح التعليم و بالاً على النفس .

*

هناك أيضاً فرق كبير بين معلم الدين وخادم الروح ، الأول يلقِّن المعرفة والثاني يبني النفس ، الأول يستقي المعرفة من الكتاب و يقدمها للتلميذ على ورقة والثاني من

(*) « العلم ينفخ ولكن المحبة تبني » (١ كو٨: ١) .

ملء روحه يفيض ، من إيمانه وحبه و بذله واتضاعه يقدم الخبرة والمثال الحي فهو يعطي نفسه و يقدم حياته . الأول ناقل كلمة يقولها كما سمعها وتعلمها والثاني يلد الكلمة من بطنه فتتفجر من أعماقه كما يتفجر الينبوع من باطن الأرض . الأول يحضر الدرس ليقود الناس الى فكره والثاني يتمخض ليلد بالروح أولاداً للمسيح .

وهناك أيضاً فرق بين تلميذ اعتاد أن يجلس إلى معلمه يسمع درساً في الدين بوعد إذا حفظه ينال جائزة أو مديحاً و بين إبن في الطاعة أسلم روحه بيد مرشده ينتخس قلبه بوعظه فيسعى إليه نشيطاً كل يوم يسأل ماذا ينبغي أن يعمل جديداً ليتخلص من خطاياه و ينمو بالروح !!

الأول يزداد كل يوم علماً ويجتهد بالأكثر ليكون أفضل من غيره و يفتخر على كل من هم دونه !!! والثاني يزداد كل يوم نعمة واتضاعاً ويجتهد بالأكثر ليكون غير محسوب عند أحد ولا عند نفسه !!

*

إذن ، فخادم الروح ليس هو مجرد معلم دروس بل بالدرجة الأولى مخلص نفوس ، والخدمة همها الأول وشغلها الشاغل توبة الشبان والشابات وسلوكهم سلوك الفضيلة ومخافة الله .

درس المحبة لا يمكن أن يكون مجرد كلمات محضرة وأمثلة محبوكة ، ولكنه عطاء نفس حقيقي حيث يهب الخادم كل حب المسيح وكل شوقه مع كل ما يملك من خبرات إليهم فيدخل السامعون مجال المحبة الإلهية محسوساً في حب خادمهم و يذوقونها بالروح فتنتقل إليهم المحبة تماماً كما يسلم الأب ميراثه لبنيه !!

درس الأمانة والإخلاص والصدق ليس بكلمات أو آيات أو ترنيمات بل هو قيادة صعبة شاقة مخلصة حيث يقود الخادم أولاده واحداً واحداً في هذا الطريق الحرج الباهظ التكاليف يشجعهم ويحفزهم و يسندهم ويحمل معهم نيره المرَّ و يتقاسم معهم الخسارات والإهانات !!

درس الإتضاع ليس بالإقناع العقلي يكون ، ولا هو بتقديم الأمثلة للحماس وللغيرة بل هو جهاد طويل ونزاع مرّ ضد الذات ، وشاق كل المشقة لا يمكن لإنسان أن يجوزه بدون يد تمسكه في هذا المنحدر الخطر. فتارة تقيمه مثل هذه اليد الأمينة من عثرة صغر النفس ، وتارة توضعه حتى التراب إلى أن تتصفى الروح من شوائب عزة النفس وكبريائها والبكاء على كرامتها .

درس الطهارة ليس أحلاماً وأماني ونماذج رفيعة وأسماء أو وصايا ومناهج للجهاد وحسب ، بل هو أولاً وقبل كل شيء إستعداد الخادم أن يكون غاسل أوساخ كالأم التي لا تستنكف أن تمسح وسخ إبنها كل يوم عدة مرات بطول أناة ، بصبر ، بعدم تأفف ، و برجاء ، تنتظر يوم العتق بلا عتاب ، بلا تخويف ، بلا انزعاج ، حتى ينسلخ الطفل من ضعفات طفولته و ينسى كل ما كان للطفل ؛ وإن أي جهالة في الرعاية كفيلة بأن تصعب الشفاء تماماً مثلما يقسى على الطفل بلا تعقل فيعجز عن أن ينسلخ في الوقت المناسب عن ضعفاته فيحملها معه حتى إلى طور الرجولة ...

هي إذن دروس حياة ، حياة أبدية تعد الشاب لا لمواجهة أسئلة الناس بل أسئلة نفسه ، وترفعه لا فوق مستوى الآخرين ليتعالى بالمعرفة ، بل ترفعه بالحق فوق مستوى أهوائه وشهواته ونزواته ليكون أصغر الكل والمستمتع بالمتكأ الأخير. لا تؤهله لمعرفة الكلام وكتابة الكتب بل تؤهله للتعرف على نعمة المسيح لكشف خطاياه وعيوبه .

هي دروس لا تلقن للعقل على مستوى الحفظ وتكديس المعلومات بل هي قيادة وريادة في ميدان الروح يتحول فيها الكلام والنصح والتوجيه والتوبيخ إلى إيمان ورجاء وحب ، يعمل و يظهر في السلوك والأخلاق والطباع ؛ حيث وسائل الإيضاح لا تعود أوراقاً وأخشاباً وألواناً وألاعيب ، بل برهان الروح في القلب وإحساس الضمير وظهور المسيح في أعماق النفس وعشرة الآباء والأنبياء والقديسين ومعايشة قصص الكتاب كما هي يوماً بعد يوم . والإمتحانات والجوائز والحوافز لا تعود مجرد صور وهدايا وحلويات بل النجاحات والإخفاقات التي يعيشها الخادم و يواجهها المخدوم تجاه وصايا المسيح وتعاليمه وحيث لا يعود الدرس ميعاده ساعة بل يمتد ليغطي حاجة العمر كله ، والإمتحان في نهاية السنة لا يشهد قط على كفاءة التلميذ بل يوم الدينونة .

ما أعظمها وأجلها خدمة !!!

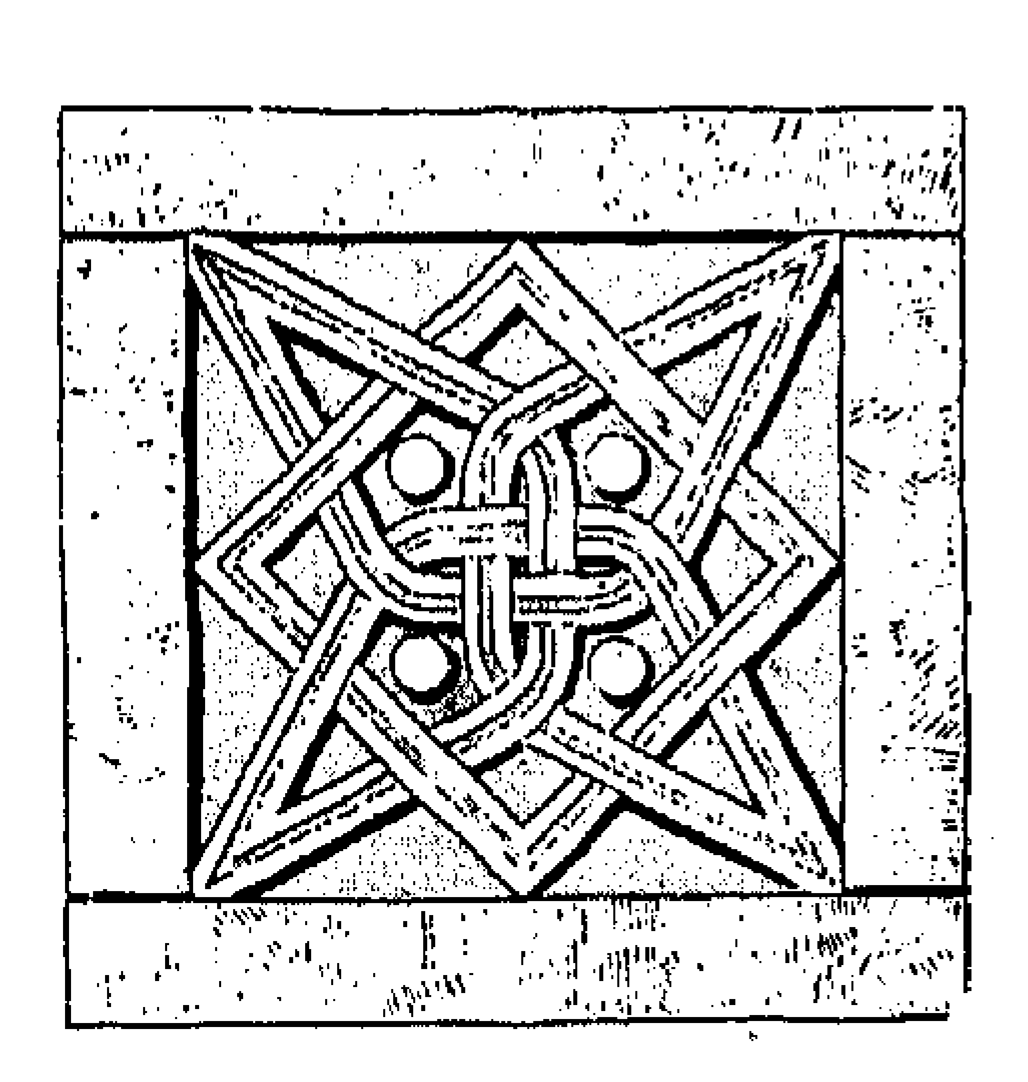
ومـا أصدقه الخادم الوفي الأمين حينما يقول كما يقول الرب لتلاميذه : « **تعلموا مني لأني** وديع ومـتواضع القلب » ... « **أنتم تدعونني معلماً** وسيداً . وحسناً تقولون لأني أنا كـذلـك . فـإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعـضكـم أرجل بـعـض **لأني أعـطيتكم مثالاً** حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً » .

الأب متى المسكين

دير أنبا مقار ـــ ٧ نوفمبر ١٩٧١

٢٧ بابه ١٦٨٨

عيد القديس أنبا مقار أسقف ادقاو (بأسيوط) .



الخـــدمة

الجزء الأول

المحتويات

خاص / عام

١ ــ مقياس الخدمة

«وإن أطعمت كل أموالي وإن سلَّمت جسدي حتى أحترق... ولكن ليس لي محبة... فلا أنتفع شيئاً» (١ كو١٣: ٣).

هذا هو مقياس الخدمة... وكل مقياس آخر تُقاس به الخدمة خلاف «المحبة» هو مقياس بشري...

+

مقياس المحبة في الخدمة يقوم على أساس:

أولاً: المحبة لله بحيث تكون كل خدمة مهما كانت صغيرة أو كبيرة بدافع المحبة لله.
«ياسمعان بن يونا أتحبني... ارعَ خرافي» (يو٢١: ١٥).

ثانياً: المحبة للمخدوم بصفته ممثِّلاً شخصياً للرب يسوع.
«...الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر **فبي فعلتم**» (مت ٢٥: ٤٠).

ثالثاً: المحبة للكنيسة جسد المسيح، والتفاني في حفظها من الضعف. «هكذا أنتم أيضاً إذ إنكم غيورون للمواهب الروحية اطلبوا لأجل بنيان الكنيسة أن تزدادوا» (١ كو١٤: ١٢).

تزييف مقياس الخدمة:

مقياس الخدمة معرَّض للتلف بتأثير عوامل كثيرة منحطة، كالإنتفاع المادي أو المعنوي...إلخ. ولكن أخطر عوامل التلف هو تعرُّضه للتقوى الشخصية، أي أن تكون الخدمة مظهراً أو استعراضاً للتقوى الشخصية، وحينئذ يحل البر الذاتي بدل المحبة الطاهرة... وهذا يُعتبر أخطر عوامل التلف، لأن بقية العوامل الأخرى كفيلة بأن تنفضح مع الزمن وتنتهي من ذاتها، أما هذا العامل فهو يزيف الخدمة تماماً بحيث تظهر

حارة وناجحة في الظاهر، بل و يكون لها قدرة على الإستمرار الطويل؛ مع أنها خدمة ليس لها عائد روحي مطلقاً ولا جزاء لها أمام الله.

أعراض تلف مقياس الخدمة:

١ ــ الإهتمام **الزائد** بنتائج الخدمة: الفرح بالنجاح، واليأس من الفشل.

٢ ــ الإهتمام بالخدمة، ونظامها، والتدقيق في ترتيبها **أكثر** من النفوس المخدومة، الذي ينتج عنه أخيراً التضحية بالنفوس في سبيل الإحتفاظ برصانة النظام.

٣ ــ عدم نمو المخدومين في المحبة، وتعلقهم بشخص الخادم **أكثر** من الله.

+

****

شعار المعرفة والتعليم الروحي

«إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة... وإن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال، ولكن ليس لي محبة... فلستُ شيئاً!!» (١ كو١٣: ١و٢).

«بهذا يعرفُ الجميعُ أنكمْ تلاميذي إنْ كانَ لكم حبٌّ بعضاً لبعض» (يو١٣: ٣٥).

****

٢ ـ مؤهلات الخادم

أولاً : الدعوة :

من حيث أن الخدمة هي خدمة الرب إذن يلزم أن الرب هو الذي يدعو من يريد أن يخدمه .

والرب لا يدعو إلا من وجد في قلبه محبة نحوه ، واشتياقاً إليه وإخلاصاً له ...

ومن حيث أن خدمة الرب هي هي خدمة أولاده الصغار وإخوته الضعفاء ، إذن يلزم أيضاً للذي يدعوه الرب أن يكون في قلبه حنان ورحمة ومحبة مُشفقة نحو الصغار والضعفاء .

وهكذا نرى أن علامة الدعوة التي تثبت أن الشخص مدعو للخدمة هي كالآتي :
(أ) أن يكون في قلبه محبة نحو الله واشتياق إليه وإخلاص له .
(ب) أن يكون في قلبه حنان ورحمة ومحبة وشفقة نحو الآخرين ، و بالأخص الصغار والضعفاء .

فإذا وُجدت هاتان العلامتان فليتأكد الشخص أنه مدعو من الله للخدمة .

فدعوة الله لا تكون بالكلام ولا بالأحلام ، وإنما بعطية المؤهلات الروحية اللازمة للخدمة .

والعطية الروحية للتأهيل للخدمة تبدأ غالباً صغيرة ، وتنمو بالأمانة والمثابرة والصلاة .

ثانياً : مرونة التلمذة :

لا يُدعى أحد لخدمة الرب وهو كامل ، ولا يوجد خادم للرب مهما كان ، في غنى عن التوجيه ، لذلك يلزم أن يظل خادم الرب محتفظاً بعقل وقلب تلميذ كل أيام حياته ! ...

بل و يلزمه أن يسعى باجتهاد كل يوم ليعرف من الرب ما هي نقائصه وعيوبه ،

ولا يجزع من توبيخ الروح القدس على فم الآخرين ، ولا يستعلي على النقد والتوجيه أينما وجده .

هذه المرونة تجعل تلميذ الرب قابلاً للنمو في محبة الله والمخدومين دائماً ...

ثالثاً : قدرة الخادم على كشف الأنانية في ذاته ومحاربتها :

الخادم المدعو من الله شديد الحساسية بأنانيته ، وتجده يتربص لنفسه في كل ما يقول و يعمل ، حتى يكتشف الإتجاهات التي تبرز فيها أنانيته ويحاربها بالإنتباه والسهر والصلاة والدموع أمام الله ، والوقوف ضد نفسه موقفاً حازماً . لا يوجد خادم عديم الأنانية تماماً ، ولكن أخطر خادم هو الذي لم يكتشف بعد اتجاهات الأنانية في ذاته .

الخادم الأمين الناجح لا يخشى إظهار خطئه ولا يتردد في الرجوع والإعتذار عن أية كلمة أو عمل يكتشف فيه أنانيته . مثل هذا الخادم يحتفظ بمستوى الخدمة عالياً ، ويمهد لنمو الشخصي في المحبة حتى في قلوب الناس ... والإعتراف المستمر والدقيق يقطع دابر الأنانية ... لأن الإعتراف بالخطية يعطي قوة جديدة دائماً .

رابعاً : الفيض :

الخدمة ليست مجرد تبليغ رسالة أو معرفة أو عمل رحمة ، ولكنها رباط محبة أبوي بين الخادم والمخدوم . « ياإخوتي الأحباء والمشتاق إليهم ، ياسروري وإكليلي ... » (في ٤ : ١) « ياأولادي الذين أتمخض بكم أيضاً إلى أن يتصور المسيح فيكم » (غل ٤ : ١٩)

فالمحبة التي بين الخادم ومخدوميه مبنية على أساس أن الخادم يبذل شيئاً ، يبذل نفسه للآخرين ، فهو يعطي إيمانه وحبه وإخلاصه وغيرته ، ليزداد إيمان الناس وحبهم وإخلاصهم لله ولبعضهم البعض بالمثل ... فالخدمة تشبه الرضاعة « كنا مترفقين في وسطكم كما تربي المرضعة أولادها » (١ تس ٢ : ٧)

فهي أمومة روحية أو أبوة باذلة مضحية ليس بالجسد فقط بل بكل شيء ، كما فعل المسيح .

والخادم لا يستطيع أن يفيض على الآخرين و يغذيهم بالمحبة والإيمان والرجاء والإخلاص ، إلا إذا كان هو بدوره دائم الصلة بالرب والتغذية منه . والخادم الناجح

لا يغتذي من الله لأجل الآخرين ولكنه يأخذ ويمتلىء لنفسه، وحينئذ من ملئه يعطي الآخرين و يفيض عليهم بسهولة و يظل هو ممتلئاً... «فليضىء نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات» (مت ٥ : ١٦).

الخادم الذي يأخذ ليعطي تجده فارغاً دائماً ومجهداً...

إذا بدأت حرارة المحبة للمسيح داخل القلب، فهي إشارة إلى أن سيلاً عظيماً من الهبات المقدسة ينتظر انفتاح القلب واستعداده لقبول هبات الله... لذلك فالإلتصاق المستمر بالرب هو باب غنى الروح وسر الفيض الغامر الذي تحتاجه الخدمة...

خامساً: المجاهرة:

إذا كانت الخدمة مصابة بالأنانية ومقياسها الروحي تالف، فإنك تجدها دائماً حذرة جبانة مهيأة للهرب، غير مستعدة للخسارة، معرضة للنكوص والتوقف... وتجد الخادم دائماً يوازن بين المكسب العائد منها والخسارة الناتجة عنها...

الخدمة الناجحة التي يشدها الحب العميق القلبي تجدها شجاعة مجاهرة وفمها مفتوح، مستعدة لتحمل كل الإحتمالات، لأن المحبة الإلهية الصادقة تُنسي الخادم نفسه وتجعل له الخسارة ربحاً... ومن خصائص المحبة، التي لا يمكن أن تفارقها، التلذذ بالبذل والتضحية إلى مالانهاية...

توجد مجاهرة كاذبة مجنونة ليس مصدرها الحب ولكن مصدرها الذات، بسبب حب الظهور واستعراض الشخصية وإثبات وجودها، وغايتها الإثارة والشغب والتخريب والتحدي...

فليحذر من هذه كل خادم لأنها تسيء إلى الخدمة والمسيح...

المجاهرة الصحيحة بالخدمة وديعة مسالمة كالمحبة مبتسمة دائماً لا تسيء ولا تقبح... ربما تكون الكلمات كالنار، ولكن يسندها قلب متضع ووجه مبتسم وعيون باكية... «لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا» (أع ٤ : ٢٠).

المجاهرة الحقة تمجد المسيح وتخلِّد الخدمة...

سادساً: عدم المحاباة:

سبب رئيسي في فشل الخدمة وتشتت الخراف وغرس روح الحقد والحسد والبغضة بينها هو محاباة الخادم لواحد من المخدومين أو بعضهم... المسيح كان يحابي الضعفاء والمذلولين والمطرودين والخطاة والمنبوذين، لمثل هؤلاء تصير المحاباة شجاعة محبة وشجاعة تحمُّل مسئولية...

الذي يحابي الخاطىء والمنبوذ هو في الواقع يتحمل معه وزر خطيئته و يشاركه بنصيب مقدس في السمعة الرديئة... «فلما رأى الجميع ذلك تذمروا قائلين إنه دخل ليبيت عند رجل خاطىء» (لو١٩: ٧).

في الخدمة الروحية لا يمكن أن نضحي بالغنمة الضعيفة أو المريضة في سبيل راحة القطيع وصحته... المسيح ترك ٩٩ خروفاً صحيحاً وذهب يفتش عن خروف واحد أخطأ وزاغ...

إذا جنحت المحاباة ناحية إنسان قوي أو جميل أو لطيف، تصير إشارة خطيرة أن الخادم مريض ويحتاج إلى استشفاء سريع...

هناك محاباة في الخدمة تكون على أساس إرضاء الرؤساء والسادة المتولين على الخدمة أكثر من اتّباع الحق وتطبيق الوصية وتكريم المسيح نفسه... هذه المحاباة خطرة لأنها تُخرج الخدمة عن حدود العبادة المقدسة لله «فلو كنت بعد أرضي الناس لم أكن عبداً للمسيح» (غل١: ١٠). يلزم للخادم أن يكون منقاداً بالروح القدس قبل أن ينقاد لآراء الناس... «كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (رو٨: ١٤).

سابعاً: بساطة الروح:

الخادم الذي يستقي علمه ومعرفته من الكتب فقط صعب عليه أن يكون بسيط الروح، لأن معرفة الكتب علم والعلم ينفخ، ولأن إتقان الفهم وإتقان الشرح في الحدود العقلية ينشىء عند الخادم غروراً ومباهاة بالمقدرة الشخصية، و ينشىء عند المخدومين تعلقاً بالخادم واندفاعاً في حماس وجنونٍ لتقليده والتشبه به فوق المطلوب...

« وأنا لما أتيت إليكم أيها الإخوة أتيت ليس بسمو الكلام أو الحكمة منادياً لكم بشهادة الله ... وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع بل ببرهان الروح والقوة ، لكي لا يكون إيمانكم بحكمة الناس بل بقوة الله » (١ كو٢ : ١ ، ٤ ، ٥)

الذي ينجذب إلى بساطة ملكوت المسيح ، فإنه من بساطة الروح ، يأخذ و يتكلم ، و يدعو الناس إلى البساطة الحقيقية التي يعبّر عنها المسيح بضرورة العودة إلى الطفولة حتى يمكن الدخول إلى ملكوت الله ...

الذي يخدم باتقان الكلمات ، معتمداً على أصول المعرفة البشرية أكثر من تلقين الروح القدس ، فإنه يضلل الخراف عن الطريق المؤدي إلى الملكوت و يعطل عمل الصليب ، لأن الخراف ستتعلق بالخادم وتتوكأ على معرفته ، و بذلك يسلب الخادم حق المسيح . من أجل هذا يلزم ، مع الإعتماد على بساطة الروح القدس ، أن يحاول الخادم أن يختفي عن مواقف الكرامة ما أمكن ، يلزم للخادم أن يتراجع ليقدم الروح القدس وأن يختفي ليظهر المسيح وحده ...

على الخادم أن يتيقظ دائماً ليقيس الكلام والآراء التي يعلّم بها على متطلبات الروح القدس وصفات المحبة حتى لا يقع في فخ الحكمة البشرية والآراء الشخصية ... « لأني لا أجسر أن أتكلم عن شيء مما لم يفعله المسيح بواسطتي ... » (رو١٥ : ١٨) .

ثامناً : مشاركة المخدومين بالروح :

المشاركة الروحية في مشاعر المخدومين وعواطفهم وأفكارهم جزء لا يتجزأ من الخدمة ... فالخدمة قبل كل شيء هي نزول إلى حالة المخدومين على الواقع الطبيعي ، للتعرف على أحوالهم وتذوُّق ما هم عليه من جهل وفقر روحي وظلمة و بُعد عن الله ، ثم الإرتفاع بهم إلى فوق بفضل عمل الروح القدس وإنارة الوصية وقوة الإيمان والرجاء والمحبة ...

فالخدمة لا تترفع عن أسوأ الحالات التي تتردى فيها النفس الإنسانية ولا تزدري بما يعلق بالنفس من وسخ الخطيئة ...

الخدمة ليست كلمة من على منبر وإنما مسك يد الخاطىء والضعيف والعبور معه من

الظلمة إلى النور ومن الموت إلى الحياة...

المشاركة العاطفية مع إنسان متألم بالجسد، أو مصاب بحادثة، شيء جميل، ولكن المشاركة الروحية مع إنسان خاطىء يعاني ازدراء الناس وتنكُّر الجماعة، عمل لا يدانيه عمل آخر، هو نفس العمل الذي تجسد المسيح ليكمله. «لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه» (٢ كو٥ : ٢١).

لا يمكن أن ينجح الخادم في رفع إنسان من منطقة اليأس والظلمة والموت، إلا إذا كان مستعداً بالإيمان والحب أن يدخل معه إلى نفس هذه المناطق، وكان متسلحاً بالرجاء أيضاً لكي يصعد به إلى النور والحياة بقوة الله... «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم» (إش٦٣ : ٩).

تاسعاً: الإحساس الدائم بالضعف:

لا يستطيع الخادم أن يرثي للضعفاء والمزدرى بهم إذا لم يكن هو عائشاً فعلاً في الإحساس بالضعف الشخصي وفي حالة ازدراء حقيقي بنفسه!... ففي اللحظة التي يبدأ فيها الخادم أن يشق بنفسه، و يشعر بتفوقه وقوته، تبدأ تحدث مفارقة خطرة بينه و بين المخدومين، و يبتدىء الشاب يشعر بصغر النفس ويحس بوجود هوة سحيقة تفصله عن مستوى الخادم العالي، فإما ييأس من اللحاق بالخادم، وإما يبتدىء يؤلّه الخادم ويحيطه بهالة قداسة ومخافة... وفي هذا وفي ذاك لا يمكن أن يتمجد الله الذي قيل عن إبنه أنه «صُلِبَ من ضعف» (٢ كو١٣ : ٤).

جيد للخادم أن يذكر ضعفه دائماً ولا ينسى خطاياه بحجة أنها غفرت. وحينما يواجه ضعفات المخدومين لا يزدري بها مهما كانت كثيرة أو شنيعة، فالخادم الصالح لا يجب أن يشق فيما هو فيه من نعمة، وعليه أن يضع نفسه دائماً موضع الضعفاء لئلا يوجد أمام الله غير مستحق لما هو فيه...

بل يلزم أيضاً للخادم أن يظهر أمام مخدوميه بمظهر الإنسان الضعيف الذي يعتمد فقط على مؤازرة الله وعمل نعمته، لأن في ضعفه فقط الله مستعد أن يظهر قوته «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل» (٢ كو١٢ : ٩).

وحينما يتحقق المخدومون من طبيعة خادمهم العادية بل والضعيفة أيضاً حينئذ سينسبون كل نجاح في الخدمة وكل قوة في الوعظ أو العمل أو المشورة إلى الله رأساً ، وهكذا تعود كرامة الخدمة لصاحبها الوحيد... « لنا هذا الكنز في أوان خزفية (طينية) ليكون فضل القوة لله لا منا » (٢ كو٤ : ٧).

عاشراً : وفاء الخادم لبقية الخدام في الكنيسة كلها بدون تمييز:

أي خادم حتى ولو أُعطي قدرة رسولية ، لا يستطيع أن يجمع ويخدم خراف الله التي على وجه كل الأرض ! ... المسيح وحده قادر على ذلك وقد أعطى خدامه معاً هذه القدرة ... فالخدام جميعاً يعملون عمل المسيح الواحد...

إذا استقل خادم عن غيره أو تعالى على الآخرين أو تجاهلهم أو ازدرى بهم فإنه يسيء إلى عمل المسيح و يضره و ينقل إلى خرافه ، دون أن يدري ، روح الإنقسام والشقاق والتحزب والفُرقة ...

كل خدمة تنتهي بالتحزب والشقاق يثبت قطعاً أنها ليست من الله ... وهي تضر الكنيسة ...

الخادم المدعو من الله ليعمل عمل المسيح هو دائماً يجمع مع المسيح ولا يفرق ، و يعلّم الخراف كيف تحب كل الخدام وتحب كل المخدومين في كل خدمة باسم المسيح داخل الكنيسة ..

والوسيلة المقدسة التي نجنب بها الخراف العثرات التي تظهر في خدمات الآخرين هي أن نلقنهم الصواب ونعرفهم الحق ، لا أن ننتقد الآخرين قدامهم فنعلمهم بذلك الجدل والدينونة ونخرجهم عن بساطة الحياة في المسيح و بساطة الملكوت...

محبة الخادم لبقية الخدام حينما تظهر واضحة أمام المخدومين بإخلاص حقيقي ووفاء ، تكون بمثابة حجر الزاوية لتسليم المخدومين روح الوحدة والألفة داخل الكنيسة ... فإذا كانت الوحدة هي هدف المسيح النهائي من الفداء حينما يصير المؤمنون به واحداً فيه ومع الآب ، وإذا كانت المحبة هي الوسيلة الإلهية التي تخدم هذه الوحدة المقدسة في الله ، حينئذ يظهر بوضوح أن عمل الخادم الأول أن يسلم أولاده هذه الوسيلة الإلهية عملياً بالمثل الحي والقدوة الناضجة « بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن

كان لكم حب بعضٌ لبعض» (يو١٣: ٣٥).

وليعلم كل خادم حينما ينظر إلى أخيه و ينتقده و يدينه أن لكل إنسان موهبته ولا يليق قط أن يزدري القوي بالضعيف ولا الضعيف بالقوي.



٣ ــ جوهر الخدمة

جوهر الخدمة شيء ومظهرها شيء آخر.

مظهر الخدمة يتعلق بالنظام والترتيب وأنواع العظات وكيفية الصلوات والخدمات المتعلقة بحاجات الضعفاء وتقسيم هذه المهام على المسئولين ، وتوجيه المسئولين لإستيفاء معرفتهم من خبرات السابقين ومن الكتب وتزو يدهم بالحاجات الضرور ية للخدمة .

أما جوهر الخدمة فهو توصيل الحياة الأبدية للمخدومين الذين وضعهم الله في مسئوليتنا ... « من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز و يقول تو بوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (مت ٤ : ١٧)

وتوصيل الحياة الأبدية هو أن يقبل الإنسان عمل المسيح الذي عمله من أجله والذي استودعه للكنيسة لتوصيله إلى كل من يؤمن به بواسطة الإنجيل والأسرار المقدسة ...

من هذا يظهر أن القيام بمظاهر الخدمة أمر سهل وممكن لكل إنسان ، أما القيام بجوهر الخدمة فأمر مهول جداً وفوق قدرة أي إنسان مهما سمت قدراته الشخصية ، ومواهبه الطبيعية ، لأنه يتعلق بحياة الله نفسه ، ولا يمكن أن يتم بصورة منظورة .

فجوهر الخدمة عمل سري فائق لطبيعة الإنسان ...

فإذا تحققنا من طبيعة جوهر الخدمة جيداً لا نعود نخطىء في استخدام الوسائل المتعلقة بها ...



الطاقات المتعلقة بجوهر الخدمة :

أي وسائل توصيل الحياة الأبدية في شخص يسوع المسيح كما تعرفها الكنيسة إلى قلوب المخدومين

أولاً : الإيمان الحي :

أبسط صورة لقوة الإيمان الحي أنه ينقل الجبل والشجرة من مكان لمكان ، كما قال الرب يسوع ... وهذا العمل جعله السيد المسيح في حدود أصغر إيمان حي ، وجعل مقياسه حبة خردل ... ولكن يلاحظ أنه مع الصغر الشديد الذي لحجم بذرة الخردل فإنها تمتاز بوجود حياة داخلها ... فالذي سينقل الجبل أو الشجرة ليس الإيمان المجرد وإنما الإيمان الحي .

فالمطلوب في الإيمان هو الحياة ، والحياة التي في الإيمان ليست كالحياة التي في بذرة الخردل ، وإنما هي حياة أبدية ... من حياة الله ... أي يلزم أن يكون الإنسان عائشاً مع الله يؤمن ويحيا به !!

أما الصورة العظمى للإيمان فهي أن ينقل الإنسان الحياة الأبدية التي يعيشها ، التي في إيمانه ، ليهبها بالحب والتعليم الصادق إلى الآخرين ، حتى يستطيعوا أن يؤمنوا بها و يتقبلوها بواسطة الكنيسة « ... الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا . الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا » (١يو١ : ٢-٣) .

هذا هو جوهر الخدمة .. أن الحياة الأبدية التي نعيشها نخبر بها الآخرين ليشتركوا معنا فيها !! الصورة الأولى البسيطة لقوة الإيمان في نقله الجبل والشجرة ، أمر غير مطلوب منا ، وهو ليس واجباً على أحد ؛ لذلك لا يعطى إلا لسبب أو ضرورة يراها الله .

أما الصورة الثانية العظمى للإيمان في نقله الحياة الأبدية من قلب لقلب فهي

ضرورة موضوعة على كل من ينال هذه الحياة «... ومن يسمع فليقل تعال ...» (رؤ٢٢: ١٧).

لذلك فالإيمان الحي اللازم لجوهر الخدمة هو عطية مجانية عامة لكل من يقبلها ...

الإيمان الحي إيمان يصدق تصديقاً كاملاً أن الله قادر أن يقيم من الأموات !! لذلك فهو لا يستصعب رجوع أي خاطىء ، حتى ولو كانت خطيته تساوي الموت نفسه ... ! ومن أجل هذا كل من كان له إيمان حي لا يطيق أن يرى الخطاة غير تائبين ، ولا يحتمل أن يسكت أو يتخلى عن الخدمة حتى ولو هُدّد بالموت ...

الإيمان الحي تكمن فيه «ثقة» بالله لا تُحدُّ اعتماداً على صفته الشخصية «**كقادر على كل شيء**» ، ويكمن فيه «**يقين**» بأنه فاعل حتماً «**كل ما وعد به**» ، لذلك فإستجابة الإيمان الحي هي بسبب الثقة واليقين أيضاً .

ونحن لو رفعنا الإيمان الحي من الخدمة بما يتضمنه من ثقة و يقين ، لما تبقى منها إلا المظهر .

ثانياً : سر المسيح :

أن يكون الإنسان مسيحياً حقاً بمعنى أنه يعيش بروح المسيح و يعمل بوصاياه ، هذا يدخل ضمن سر الخليقة الجديدة ... الأمر الذي لا يستطيع إنسان ما ، مهما كان عالماً وحاذقاً أن يفسره أو يشرحه . والمسيح نفسه قال عن هذا الأمر أنه يتم بالروح القدس سراً دون أن يراه أو يلحظه إنسان ، كهبوب الريح لا يعرف الإنسان من أين يبدأ وإلى أين ينتهي .

جوهر الخدمة أن يصير الإنسان مسيحياً حقاً على يدي الخادم ، أي يتم فيه سر المسيح غير المفحوص وغير المدرك .

جوهر الخدمة إذن ليس مجرد تعليم أو وعظ أو شرح ، وإنما هو تسليم سر المسيح الذي يفوق كل عقل .

وسر المسيح ليس معرفة أو تعليماً أو مجرد سلوك و أخلاق وإنما قبول روح المسيح وحياته . فالذي له روح المسيح له المسيح وهو مسيحي ، والذي ليس له روح المسيح فالمسيح ليس له .

«إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك ليس له» (رو٨: ٩).
أي أن جوهر الخدمة ليس مجرد تبليغ مبادىء وأفكار ومُثُل، وإنما هو توصيل روح وحياة.
«ليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس» (١ كو١٢: ٣).

حينما يدرك الخادم ما هو جوهر الخدمة سيلتفت في الحال إلى نفسه وسيبحث عن جوهر الخدمة في أعماق قلبه وليس في الكتب والمذكرات...
الكتب والمذكرات هي دعامة المظهر والصورة التي لا غنى عنها في توصيل الروح للمخدومين، ولكن بدون الروح والحياة ماذا تنفع الكتب وماذا ينفع الدرس مهما بلغ اتقانه؟

وحينما نلتفت إلى الكنيسة كيف كانت، وما زالت، تقدم سر المسيح للمؤمنين صغاراً وكباراً؛ نجد أنها لا تقدمه بالتعليم والوعظ فقط بل ما تعلم به وتعظ به من على المنبر تقدمه بصورة سرية عملية في أسرارها السبعة.
إذن، أساس الخدمة في الكنيسة ليس التعليم فقط، فالتعليم لا يمثل إلا الجزء الظاهري من الخدمة أما الجزء الجوهري السري فهو لا يقدّم بصورة كلام وإنما بتوصيل روح المسيح وحياته إلى قلوب المؤمنين بطريقة غير قابلة للفحص!... بحيث لو اعتمدت الكنيسة على الوعظ فقط واستغنت عن الأسرار، فهذا معناه أنها تخلّت عن جوهر الخدمة السري، وما عاد ممكناً أن تسمى كنيسة.
هكذا أيضاً في خدمة الخدام فلو اعتمد الخادم على الرسالة الشفوية دون الإعتماد على عمل الروح الداخلي فهو يمثل كنيسة بدون أسرار.
كل خادم يمكنه أن يخدم المظهر والشكل، ولكن يستحيل أن يستطيع خادم توصيل الروح والحياة إلى قلوب المخدومين إلا إذا كان فيه روح المسيح وحياته.

*

ثالثاً : سر المحبة :

نقول سر المحبة ، لأن المحبة شيء وسر المحبة شيء آخر ، إذ يمكن لكل إنسان أن يتذوق المحبة حتى الطاهرة أيضاً و يبقى كما هو ، ولكن أن يُعطَى الإنسان سر المحبة فلا يمكن أن يبقى كما هو بل يبدأ ، في الحال ، في أن يبذل نفسه .

المحبة المسيحية لا تبقى وحدها ، كل أنواع المحبة تبقى كما هي لذلك تموت وتضمحل ، أما المحبة المسيحية فهي حية ، والحياة فيها منسكبة في كل اتجاه . وهذا هو سر بقائها ونموها حتى في أسوأ الظروف . فالمحبة المسيحية أقوى من الموت لأن فيها سر قيامة المسيح وحياته الأبدية .

لا يمكن أن توجد خدمة صادقة فعَّالة بدون سر المحبة ، لأن الخدمة الفعَّالة تقيم النفوس الضعيفة والمائتة . وهذا لا يتم إلا بقوة سر المحبة ... كل خادم يمكنه أن يوصل كلام ووصايا وتعاليم المسيح للناس دون أن يخسر شيئاً ، بل ربما يكتسب شهرة وكرامة ومجد الناس ، ولكن الخادم الذي يوصل جوهر الخدمة لمخدوميه أي يعطيهم الروح والحياة فهو خادم يلزمه سر الحب المسيحي .

و واضح من آية بولس الرسول أن الخدمة مهما كانت قو ية وحارة ولكن ينقصها سر الحب المسيحي ، فإنها لا تنفع شيئاً . فالخدمة يمكن أن تكون حارة وقو ية بدوافع شخصية كثيرة ولكن بدون حب حقيقي ، وحينئذ تصير خدمة بشر ية فاشلة ميتة لا تعود بفائدة لا للخادم ولا للمسيح ولا للمخدومين . سر المحبة المسيحية يرفع الخدمة من المستوى البشري ويجعلها للمسيح . المحبة المسيحية ليس معناها الحماس للبذل ، إذ يمكن للخادم أن يقدم جسده حتى يحترق دون أن يكون الدافع محبة المسيح ، إذ ربما يكون شجاعة بشر ية أو تهوراً أو تحدياً ...

المحبة المسيحية مثل إبرة المغناطيس في البوصلة ، تتحرك في كل اتجاه ولكن يشدها بقوة سر ية القطب الشمالي وحده ، و يتحكم في كل حركتها . هكذا أيضاً شخص المسيح فهو وحده الذي يتحكم في أعمال الخادم وعواطفه وحركاته وانفعالا ته بسر الحب الذي ر بط قلبه به إلى الأبد .

فإن كانت الخدمة معمولة بمحبة المسيح و بدافع القوة التي تجذب القلب نحوه ، حينئذ ستكون أقل حركة وأقل بذل ذات تأثير إيجابي على المخدومين . بمعنى أن قلوبهم ستنجذب هي أيضاً نحو المسيح لينسكب فيها الحب نفسه . فالخادم الذي فيه سر الحب الإلهي يستطيع أن يجذب المخدومين إلى حب المسيح ... وهذا هو جوهر الخدمة .

لو انفصلت الخدمة عن سر محبة المسيح لصارت رياضة جسدية أو استعراض قدرات أو مجرد مهنة . المحبة تؤمّن الخدمة ضد البر الذاتى ، وتحفظ الإيمان في خدمة الحق .

إن الشاب الغني لم ينفعه اتقان التعليم وحفظ الناموس كله منذ الحداثة ، لأنه لما طُلب منه أن يبيع أمواله و يتبع المسيح ليرث الملكوت ، لم يجد ذخيرة من المحبة تكفيه للقيام بهذا البذل !! فكل معرفة صحيحة تقربنا من الملكوت ، ولكن لن يدخلنا إليه إلا البذل الكامل والتسليم النهائي الذي هو عمل المحبة ...

رابعاً : قوة الصلاة :

قوة الصلاة تصل الخادم بالمخدوم سرّاً . إنها تؤلف وتوحد بين قلبيهما وروحيهما . الصلاة تعمل عملاً تمهيدياً إعجازياً لتوصيل الخدمة ، و بدون قوة الصلاة تظل إمكانيات الخادم محصورة داخل قلبه مهما كانت روحية وكاملة ...

بالصلاة الحارة المخلصة يتلاشى كيان الخادم من عيني نفسه وتذوب أنانيته ، فيصير مهيأ للإعطاء دون تعالي ، فيرتاح فيه روح الله ، و يعبر من خلال قلبه وفمه للمخدومين بدون مانع !!

بالصلاة ينفتح قلب المخدوم وتستنير عينا ذهنه الروحية ، فيستقبل عطية الروح القدس خالصة نقية و ينسكب في قلبه الحق بدون نقاش أو جدل أو تشكك .

بالصلاة يحل الروح القدس فيرفع الحواجز الصعبة بين الخادم والمخدومين ؛ الحواجز التي صنعتها البيئة والحواجز التي صنعها التعليم الخاطىء والحواجز التي يدسها العدو لتعطيل قبول الحق .

بقوة الصلاة تتحول الكلمات الهادئة إلي رعود و بروق تعصف بالضمير النائم لتوقظه من سبات الخطيئة والإنحلال والكفر.

بقوة الصلاة تذوب القلوب العنيدة والضمائر التي بيتت النية على المقاومة .

بقوة الصلاة يزول الجفاء من القلوب ويهرب روح العداوة وتتكسر فخاخ الأعداء و ينسحب المقاومون للخدمة .

في الصلاة يعلن الله مشيئته و يلقي شبكته ليصطاد النفوس الحلوة التي اختارها لتمجده ، وتعلن إسمه ، وتصنع مشيئته ، وتشهد له .

في الصلاة تنسكب المواهب وتتوزع العطايا و يزداد الإيمان وتتحرر النفوس المكبلة بالخطيئة ، ويخرج الجميع محملين بغنائم الروح القدس .

الصلاة لجام سري مقدس أول ما نثبته في أفواهنا يسوق الله الخدمة إلى حيث يشاء !

الصلاة زينة الخادم التي يتزين بها قبل أن يتراءى أمام مخدوميه لينظروا في وجهه صورة العريس السمائي فتأكلهم الغيرة والشوق أن يهبوا أنفسهم له .

الصلاة تختم على وجوه المخدومين بختم بهاء الروح القدس فتسري في وسط الجماعة رائحة السماء ... و ينقاد الجميع إلى مرضاة الله .

بالصلاة يعود مجد الخدمة وكرامتها لله حيث يعطي له الجميع كل البركة والعظمة والحكمة والسلطان مكرمين المسيح الذي أهّلنا أن نكون خدامه !

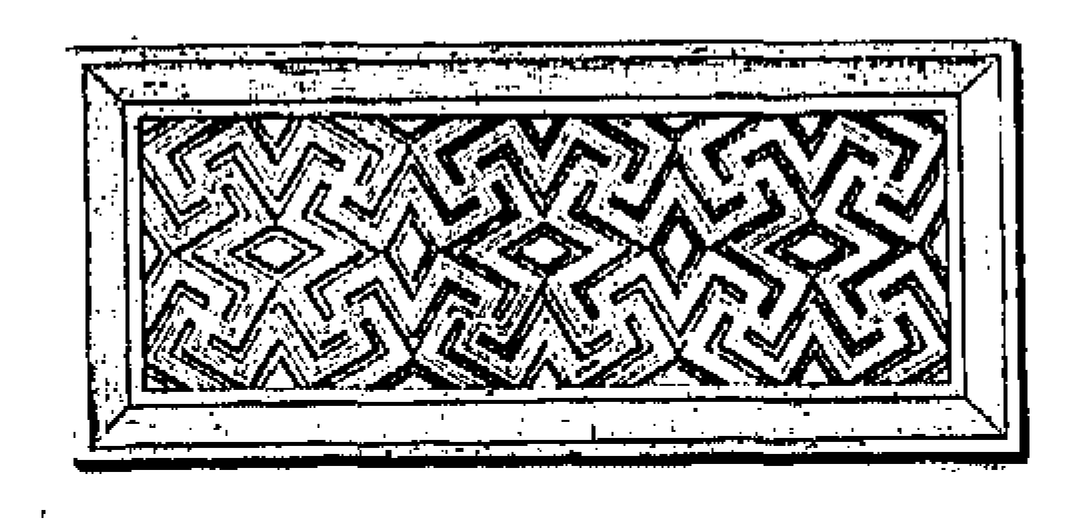


٤ ـــ المخدومون

كما أنه يوجد راع صالح ، كذلك توجد غنمة صالحة . ولكن يوجد في القطيع جميع القدرات ، وأمثلة كثيرة للضعفاء مثل المرضى والرضعان والحملان الصغيرة . والراعي الصالح هو الذي يقود القطيع بحكمة ولا يتأفف من الضعفاء .

كثير منا يعتبرون أنفسهم رعاة مع أننا كلنا خراف وكلنا ضعاف ! ...
كثير منا بالرغم من مظهر الصلاح الخارجي والتقوى واتقان تمثيل القداسة إلا أننا في نظر الله مرضى بل « موتى بالخطايا والذنوب » وخراف جربانة في القطيع ! ... أما مرضنا فهو أننا نحاول أن نتجاهل حالتنا . و بالرغم من وجود الخطيئة في حياتنا فنحن مطمئنون وساكتون ... حالتنا مثل خروف ضرب المرض في أحشائه بسبب أكله بعض الحشائش السامة ، و بالرغم من احساسه بالمرض لا يزال يجتر منها بسبب طعمها اللذيذ ... هو جالس وسط القطيع ومنظره كأنه سليم ولكنه جالس يجتر السموم ...
هكذا الكثير منا جالس في الكنيسة يجتر في خطاياه ...
يلزمنا أن نتقيأ الخطيئة أولاً حتى يمكننا أن نتابع الراعي الصالح ونغتذي عنده في مرعى القداسة .

شرط للمخدومين لكي تثمر فيهم الخدمة والصلاة أن يتطهروا من الداخل ، أي أن يكون قلبهم طاهراً مستعداً لقبول روح الله وعطيته ، وإلا فلن تثمر فيهم الخدمة ... مثل الخروف المضروب جوفه بالمرض فهو لا ينتفع بأجود المراعي ...



أمراض المخدومين

أولاً : التذمر من الدخول من الباب الضيق :

هذا يعتبر وباء العصر الحديث . فالجميع يطلبون الراحة والتسلية والإتساع ، والعالم يتفنن في تقديم كل وسائل الراحة للناس ، وهو يُسخِّر لهم العلم والعقل والمال لتقديم الراحة بأرخص الأثمان . وملكوت الله يحتاج أن يقمع الإنسان نفسه و يرفض اللذة و يقاوم الإتساع ... فأيهما تختار؟؟

إما أن ينحاز الإنسان للعالم وشهواته فيدخل من الباب الواسع ويحقق مسرته ولذته و ينسى نفسه بالتسلية والمتع التي لا حصر لها ، وإما ينحاز الإنسان لله ومحبته و يدخل من بابه الضيق ويحقق القداسة والرزانة و يُفرِح روحه بعشرة الله والحياة له ...

يستحيل أن يجمع الإنسان بين لذة الجسد ولذة الروح ...
يستحيل أن يوفق الإنسان بين تسليات ومسرات الجسد وعزاء النعمة ...
ملعون الراعي الذي يقود غنمه لتشرب من نقع الخطيئة ! وملعونة الغنمة التي تأكل السم وتدعو الآخرين ...

أيها الراعي الذي يريد أن يفرح بغنمات كثيرة و يفتخر بالأرقام وكثرة الحضور، احذر أن توسع الباب الضيق !! لأن باب الرب سيبقى ضيقاً والذين يجدونه سيظلون قليلين ...

الباب الذي يحاول الخدام العصريون أن يفتحوه واسعاً أمام المخدومين إرضاءً لمزاجهم أو استجابة لمطالبهم سوف لا يوصلهم إلى الحياة الأبدية بل إلى الهلاك .

فعلينا نحن المخدومين « أن ننكر الفجور والشهوات العالمية ونعيش بالتعقل والبر والتقوى في العالم الحاضر» (تى ٢ : ١٢) .

ثانياً: المراوغة أمام سيف الكلمة:

«كلمة الله حية وفعّالة وأمضى من كل سيف ذي حدين، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميزة أفكار القلب ونياته» (عب ٤ : ١٢).

كثير منا يعبر على بعض الآيات فيغض الطرف عنها، وحينما يسمع وصية معينة يحاول أن لا يقف عندها بفكره، وحينما يصغي إلى التعليم والعظات يتلافى الكلمات المصوَّبة نحوه و يتهرب من تأنيب الضمير.

صحيح أن الكلمة سيف مسلول ذو حدين، ولكن «سيف» في يد من؟

لو كان في يد عدو، لحقّ لنا أن نزوغ ونراوغ ونهرب لأنه سيغرسه حتماً في مكان الموت!...

ولكن الكلمة كلمة الرب الذي ذبح نفسه على الصليب لينتزع لنا الحياة الأبدية من وسط ظلمة الموت والهلاك!...

هي سيف، ولكن في يد الروح القدس الوديع الهادىء الذي ير يد أن يغرسه في الإنسان للفصل بين النفس العتيقة التي تطلب العالم والروح الخالد الذي يطلب الحياة...

متى كان الجرَّاح مكروهاً؟ أو من ذا المريض الذي يود أن يعيش ولا يستسلم لإنغراس مشرط الجرَّاح في أعماق اللحم حتى القلب؟

آه لو عرف المخدومون قيمة الكلمة الموجعة والوصية المسننة المصوَّبة ناحية القلب الغاش والضمير الماكر والنفس المستبيحة والأعضاء الملتهبة. لو عرفوا أن هذا السيف الحاد يطلب لهم طهارة السيرة ونقاوة الضمير ونور الحياة؛ لقبضوا على السيف بيدهم وغرسوه في ضمائرهم حتى القلب ليستنزفوا الدم الأسود الفاسد؛ و يتحملوا كل ألم وكل تعيير وتشهير وتعنيف إلى أن يموت الإنسان العتيق...

إذا دخل الإنسان ليسمع كلمة الله وهوغير مستعد لقبول سيف الكلمة لكي تخترق قلبه وتكشف فضائح ومكنونات ضميره، أو وهو غير مستعد أن يقع تحت حد

السيف ليفصل بين الموت الذي فيه و بين الحياة ؛ فالكلمة التي للخلاص تتحول إلى دينونة ...

آه ، لقد أتى الزمان ، الذي تنبأ عنه بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس ، الذي فيه ستتضجر الآذان من سماع الحق الصافي و يتحول الناس إلى التعاليم السهلة و يصدقون الخرافات لأنها تعفي ضمائرهم من توبيخ الحق المتسلط !... « سيكون وقت لا يحتملون فيه التعليم الصحيح ، بل حسب شهواتهم الخاصة يجمعون لهم معلمين مستحكة مسامعهم ، فيصرفون مسامعهم عن الحق و ينحرفون إلى الخرافات » (٢ تي ٤ : ٣، ٤) .

ثالثاً : الشيخوخة الروحية :

كما يصاب القطيع بالعقم ، أو كما تدب الشيخوخة المبكرة في إنسان فتتهدم عافيته وتنحل حواسه و ينحني ظهره وهو ما يزال في سن الشباب ، كذلك يحدث للرعية أو المخدومين إنما في مجال الحيوية الروحية والنمو في عشرة الله واكتساب القداسة ...

ربما يكون بسبب جفاف المرعى ، وربما يكون بسبب التعاليم الهزيلة والأمثلة الميتة . وقد يكون بسبب الإنصباب وراء الشهوات الجسدية التي تستنزف عصارة الحياة وتفسد طعم القداسة . وكثيراً ما يكون بسبب شدة الجري وراء الأموال والتجارة في الدنيويات أو غواية العلم الكثير وتسخير كل الوقت وكل الصحة وكل الإهتمام للحصول على الدرجات العلمية ، التي ما ينالها الإنسان إلا و يكون قد فقد شباب الحياة وعافية العمر، وعافت نفسه القراءة والبحث وكل اهتمام ...

الشيخوخة الروحية معناها أن الأذن قد كلَّت من سماع نداءات التوبة والرجوع إلى الله بعزم القلب ، فيصرخ الواعظ والمعلم وكأن السامعين أشباح ميتة لا تتحرك ، وكل إنسان ينظر إلى أخيه كأنه هو المقصود وليس نفسه ...

الشيخوخة الروحية معناها أن العين كلَّت من القراءة في الكتاب المقدس و بقية الكتب الروحية . فالكلمات واقفة في مكانها باردة ، والعيون سريعة النعاس لا قدرة لها على المتابعة واليقظة !

الشيخوخة الروحية معناها أن القلب تحجر وفقد خاصية الإلتهاب بالروح وماتت حساسيته من جهة مفاعيل النعمة ، فما أن يقف الإنسان ليصلي أو يسمع الصلاة إلا و يتثاءب و يتثاءب و يتثاءب حتى يصير أضحوكة بين الواقفين ! ... وهو لا يحس ولا يشعر كأنه غير موجود !!

الشيخوخة الروحية أن لا يعود الغذاء الروحي بذي نفع . فالأسرار ميتة بالنسبة لحياته والخدمات روتينية باردة والعظات سقيمة والكتب الروحية لمجرد التسلية . لقد أصيبت الروح بالإنطفاء ولم يبقَ داخل القلب إلا تشويش وآثار نعمة لحياة ماضية يستخدمها الإنسان في تغطية المواقف .

الشيخوخة الروحية معناها أن الإنسان يفقد القدرة على الرجوع إلى الله بعزم القلب ، فما أن يعزم و يتوب و يعاهد الله إلا ويجد نفسه ينسحب قليلاً قليلاً حتى يصل الى حيثما كان أولاً ... و بتكرار المحاولة يتضح العجز !!

آه ! ليس من وسيلة للتغلب على الشيخوخة الروحية إلا بصلب الذات وقطع كل الموارد التي يتغذى عليها الإنسان العتيق ، وأن ينفض الإنسان عن نفسه كل اهتمام إلا بخلاص نفسه ! ...

« يجدد مثل النسر شبابك » .

رابعاً : تسويف العمر باطلاً :

هذا مقطع دعاء من أدعية صلاة تحليل الكاهن في نصف الليل حينما يطلب الكاهن أن يُلهم الله شعبه حتى ينجو من تسويف العمر باطلاً كفخ من فخاخ العدو...

إذا غرس الشيطان هذا المرض النفسي داخل الإنسان ، استطاع أن يفوّت عليه كل الفرص التي يستخدمها الروح القدس لنخس القلب لإنهاضه من حالة الفتور والكسل والملل والضجر... فتضيع جميع المجهودات المقدسة التي يقوم بها الراعي أو الخادم لبث روح الغيرة والمتابعة في طريق القداسة والعبادة الحارة . هنا يتأثر المخدوم بالكلام والتوجيه ويحس بقوة الروح ونداء الله ، ولكن لا يجد مبادرة داخل نفسه

لإطاعة الصوت في الحال بل يحس وكأن حرارة سرت في داخل قلبه ثم تسربت، بدافع التأجيل، حتى ـــ بعد قليل ـــ لا يعود لها أي أثر...

أين هذا مما قام به بولس الرسول «وفي الحال لم استشر لحماً ولا دماً بل انطلقت...».

أين هذا من استجابة متى الرسول لما كان جالساً في مكان الجباية وسمع صوت المسيح: «اتبعني»، «فقام في الحال وتبعه»!...

أين هذا مما صنعته الجموع المحتشدة يوم الخمسين الذين لما سمعوا عظة بطرس الرسول ونخستهم قلوبهم تقدموا في الحال قائلين: «ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة».

المخدومون إذا أصابهم هذا التخلف والرغبة في التسويف والتأجيل في الإستجابة، طال زمان تعلمهم باطلاً، وشاخوا وهم لا يزالون يحتاجون إلى اللبن لا إلى طعام البالغين. هؤلاء يخاطبهم بولس الرسول: «قد صرتم متباطئي المسامع لأنكم، إذ كان ينبغي أن تكونوا معلمين لسبب طول الزمان، تحتاجون أن يعلمكم أحد ما هي أركان بداءة أقوال الله، وصرتم محتاجين إلى اللبن لا إلى طعام قوي» (عب ٥: ١١ و١٢).

صوت الحق لا يمكن أن يطرق قلب الإنسان عدة مرات بنفس القوة.

إذا رفضنا الحق مرة، صار نداؤه وتحذيره لنا أقل وضوحاً وأضعف تأثيراً، حتى يأتي وقت نبدأ نشك فيه هل هو صوت من الله أو لا!!

ياللحزن الشديد، صوت الله لا يمكن أن يشك فيه إنسان إذا بادرنا من البدء في الإستماع إليه والإستجابة له...

رفضُنا لصوت الحق بداعي التسويف والتأجيل وانتهاز الوقت لتتميم أخطائنا وشهواتنا يفقد جهازنا الروحي الداخلي القدرة على التقاط نداء الله واستدعائه لنا... وحينئذ يأتي وقت نطلب فيه التوبة بدموع فلا نجدها، كما يقول الكتاب: «إذ لم يجد للتوبة مكاناً مع أنه طلبها بدموع» (عب١٢: ١٧).

خامساً: تدليل النفس والعطف على الذات:

إذا لم يقلَّم الكرم توقف الطرح وخسر الكرام الثمر، وإذا قصَّر الأب في تهذيب

الطفل بداعي الشفقة نشأ رجلاً تافهاً لا يصلح لتحمُّل المسئوليات . هكذا المخدومون ، إذا جنح الراعي إلى تدليلهم والعطف عليهم لإكتساب مودتهم فسد القطيع وتعذر عليهم الصعود إلى مرتفعات المواهب المسيحية وممارسة أعمال الإيمان والحب والبذل ...

أما إذا أصيب المخدومون بداء العطف على الذات وتأففوا من توبيخ الكلمة وانتهار الراعي ونخس الروح واستعفوا من تحمل قصاص الكسل واستكثروا التأديب اللائق بخطيتهم ، يتوقف نموهم فجأة بل و يرتدون من على الطريق و يشكون في راعيهم وقائدهم ؛ فينتهز العدو الفرصة و يغرس في قلبهم سهام التذمر، ويهوِّل لهم مشقة الطريق ، و يرعبهم من جهة الأخطار والتجارب ، و يسهِّل لهم الطريق الواسع ، ويهيىء أمامهم الفرص للإرتداد ...

آه ، و يل للإنسان الذي تسوقه نفسه ويجعل العطف عليها أساساً لإيمانه وسلوكه ... لأن النفس المريضة بالعطف على ذاتها تسوقه حتماً إلى الراحة ، ومن الراحة إلى الكسل ، ومن الكسل إلى اللذة ، ومن اللذة إلى الخطية حيث الموت ...

أما طريق الله ، فيحتاج إلى قوة ضبط داخلي وكبح جماح النفس وركوب المصاعب بشجاعة وتحمل توبيخ الأدب وعقاب الإنحراف بمسرة .

الرب يطالبنا أن نحمل الصليب ، وما معنى الصليب ؟

الرب نبهنا أن طريق الملكوت شاق وخصوصاً على النفس المدللة !

هل نريد أن نتكلل دون جهاد ؟ هل نريد أن نجاهد دون أن ننجرح من الداخل والخارج ؟

هل يمكن أن نقف في الدينونة أمام الله ونعتذر عن إخفاقنا في الجهاد حسب وصاياه بأنها كانت صعبة أو أن كلام آبائنا ومعلمينا كان شديداً أو قاسياً ؟؟

أليست الوصية صريحة للآباء والمعلمين ؟ ...

« وبخ . انتهر. عظ بكل أناة وتعليم » ؟! (٢ تى ٤ : ٢) .

حقاً ... « ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة . وقليلون هم الذين يجدونه » (مت ٧ : ١٤) !

□ □ □

الخـــدمة

الجزء الثاني

المحتويات

الفصل الأول

في بناء الخادم

١ ــ دعوتان وبناءان :

في الكنيسة دعوتان ، دعوة للرهبنة ودعوة للكهنوت والخدمة ...

والدعوتان بالرغم من أنهما شهادة واحدة للمسيح وتطبيق مباشر لوصايا الرب ، إلا أن لكل منهما منهجاً معيناً في الحياة والسلوك والصلاة وبقية الواجبات ...

فالمدعو للرهبنة عليه أن يبني قلبه وفكره وكل حياته على سيرة الآباء القديسين ، واضعاً أمام عينيه باستمرار **وصيتهم الأولى والعظمى أن يبتعد عن العالم والرئاسات ، وأن لا تستهويه الخدمة بين الناس مهما كانت الإلحاحات ،** وهكذا عليه أن يتمسك بتعاليمهم تمسكاً لا هوادة فيه وإلا فسوف يجد نفسه في النهاية راهباً بلا رهبنة يعيش تحت إسمها ولا يحمل نيرها ، يتكلم باسمها وهو غريب عن دعوتها ...

والمدعو للكهنوت والخدمة بين الناس يبني قلبه وفكره وكل حياته على سيرة الرسل القديسين ، **واضعاً أمام عينيه باستمرار سيرتهم في الجهاد المتواصل لخدمة المؤمنين ليلاً ونهاراً ، في وقت مناسب وغير مناسب ،** وما يلزم لذلك من قطع المشيئة والتنازل الكامل عن كل الحقوق الشخصية ، والأمنيات ، والأحلام التي تتعارض مع جهاد الخدمة ، حتى ما بدا منها صالحاً في حد ذاته ، كالإستغراق في الوحدة والبعد عن الناس والعزوف عن الكلام ، إلا إذا كان بالقدر الذي يزيد الخدمة قوة ونجاحاً ، أي أن يكون ذلك لا بدافع مجرد استرضاء النفس ، بل لإصلاح عجزها ، وبالنهاية لزيادة كفاءتها للخدمة .

والذي ينبغي أن يتضح أمام أصحاب الدعوتين أنه **كما يُحارَب الراهب بحب الخدمة ، يُحارَب الكاهن والخادم بحب الوحدة ، وكلا الحربين هما إلحاح من**

اللاشعور للهروب من الواقع؛ وذلك إنما يكون بسبب إخفاقات عارضة لا ينبغي أن ينهزم الإنسان أمامها؛ إذ بمجرد أن يتشدد الإنسان بالله و يقف أمامه مجدداً عهده متشجعاً بالأمثلة الحية التي سبقته، فإنه يُقبِل على دعوته بغيرة ونشاط و يعود فيرى فيها كل راحته وسلامه وإكليله.

غير أن نوع القراءة والتأمل والدراسة التي ينشغل بها أصحاب الدعوتين لها تأثير مباشر وقوي، فهي إما تزيد الإنسان تمسكاً بدعوته كما تزيده كفاءة في تأدية واجباتها، وإما تتسبب في خلخلتها وإضعاف قيمتها في نظره شيئاً فشيئاً، ثم توحي إليه أخيراً بالإستهانة بواجباتها.

فالراهب الذي يهمل القراءة والتأمل في سير الآباء ووصاياهم، و ينشغل **فقط** بدراسة الإنجيل وحفظ الآيات، تبتدىء روحه تفتر من جهة دعوته ووحدته، ثم تُشاغله أحلام اليقظة بالخدمة فيتصور نفسه واعظاً ومخلِّصاً للناس. وقليلاً قليلاً لا يعود يطيق ديره أو وحدته، وقليلاً قليلاً أيضاً يخترع لنفسه المعاذير للنزول إلى العالم، أو يخترع له اللاشعور من الأمراض والتخاويف ما يقنعه للإسراع في النزول تاركاً دعوته وراء ظهره.

أما الكاهن أو الخادم الذي كرس حياته لخدمة الإنجيل، إن هو أهمل التأدب بكلمة الإنجيل ولم يجلس لها كل يوم ساهراً فاتحاً كل قلبه وذهنه لإرشادها وتعليمها، وانشغل عنها أكثر من اللازم بأخبار المتوحدين والرهبان ومعجزاتهم ووحدتهم وهدوئهم، فإنه إزاء تعب الخدمة وشقائها يبتدىء يشتهي حياة المتوحدين فيبتدىء يتغنى بدعوتهم وسيرتهم و يغبط سلوكهم وحكمتهم، وقليلاً قليلاً تغمره موجات يائسة من حياة الخدمة ثم يبتدىء يشك في دعوته كأنها غير مناسبة له، أو كأن الله ظلمه بهذا النير الثقيل لأنه مخلوق لأن يكون راهباً — كما يصور له اللاشعور — فينطلق لسانه بالتذمر وتبتدىء رجلاه تسرعان إلى الأديرة فيزداد تمزقه وتزداد حيرته، وكل مرة يرجع فيها من الدير يتصور الخدمة أنها فخ سقط فيه أو سجن وشقاء، والسبب أنه ابتدأ يبني برج حياته وفضائله وتقواه ليطل على الصحراء، واحتفظ بظهره للكنيسة المسكينة!!

ليس هذا معناه أن لا يتثقف الراهب بكلمة الإنجيل كل يوم و بكل عمق وإخلاص ، ولا أن يمتنع الكاهن وخادم الإنجيل أن يتربى تحت أقدام الآباء وتعاليمهم وعفتهم وزهدهم ، ولكن **على الراهب أن يجعل من الكلمة نوراً للسيرة الرهبانية الزاهدة المتعففة ؛ وعلى الكاهن أن يجعل من سيرة الآباء وزهدهم برهاناً لصدق الكلمة التي يخدمها** و يبشر بها ، ومشجعاً له وللذين يجاهدون معه للشهادة في وسط العالم ضد العالم !

٢ ــ نظرتان في الخدمة متلازمتان :

الأولى : نظرة الخادم نحو الله الذي يمده بالقوة للخدمة .
والثانية : نظرة الخادم نحو ضعفه الذي يكتشفه في نفسه كل يوم ...

هاتان النظرتان ولو أنهما متعارضتان شكلاً ، إلا أنهما منسجمتان انسجاماً كلياً ، ونقول « كلياً » لأن الإنسجام هنا هو في الواقع بين قوة الله وضعف الإنسان ، فهو انسجام طبيعي ولاهوتي معاً ... حتى أن الله نفسه يتطلب تلازمهما « لأن قوتي في الضعف تكمل » (٢ كو١٢ : ٩) . والذي يكمل هنا هو قوة الله وليس ضعف الإنسان ، حيث يظل الضعف ضعفاً كما هو !!

فالكاهن أو الخادم إن هو أكثر من النظر إلى ضعفه ، وتغاضى بنوع من الخداع النفساني عن النظر إلى قوة الله التي يخدم بها ويخدم تحت سلطانها وتدبيرها ، فإن توازنه يختل و يسقط تحت نفسه ! وهذا يأتي بسبب صغر النفس ، وذلك من عدم تجلي الإيمان في القلب على أساس عمل الدم الإلهي ، وعدم ازدهار الرجاء في النفس على أساس القيامة التي أخذناها حقاً أبدياً لنا ...

كذلك إذا أكثر الكاهن أو الخادم من النظر إلى قوة الله متغاضياً عن حقيقة ضعفه وخطاياه ، فإنه يتجبر و يتصلف و يدّعي الألوهة ، حيث لا يعيده إلى موقعه الحقيقي إلا سقطة أو انكسار علني يكشف له حقيقة ضعفه ! ...

على أننا نود لو نوضح أكثر ، الفرق بين نظرة الخادم نحو الضعف الصحيح أو

التواضع الصحي الذي لا يؤذي النفس ولا يسيء إلى الإيمان ، الذي يزيد الخدمة قوة وكرامة ومجداً لحساب المسيح ، وبين **نظرة الضعف اليائس أو التواضع المريض الذي تشمله الكآبة وصغر النفس(*) الذي يلغي عمل الإيمان ويضعضع الخدمة ، وينعكس على الرعية فيثبط من همتها ويحط من شجاعتها ! ...**

والفرق بين الإثنين هام وخطير، فنظرة الضعف الحقيقي إلى أنفسنا لا تلغي الإحساس بقوة الله بل تزيدها فاعلية . أما نظرة الضعف اليائس النفساني ، فإنها تلغي الإحساس بقوة الله ولا تعطيها فرصة للعمل !! ...

أي أن الضعف والتواضع الحقيقي يزكي عمل قوة الله في الخادم وفي الخدمة ، فهو يزيد الخدمة نجاحاً لحساب الله . أما الضعف والتواضع المريض فقد يزكي الإنسان أمام بعض الناس ، ولكنه يفقده قوة الله فتنحط الخدمة وتنحط الروح المعنوية للرعية .

لذلك ، ليس من صالح الخدمة أن يُظهر الكاهن أو الخادم ضعفه للرعية و يتغنى بضعفاته بمناسبة وغير مناسبة . **يكفي أن يكون الإنسان متضعاً بالعمل لا بالكلام ،** فكل كاهن أو خادم يظهر ضعفه لرعيته يخطىء خطأين :

الأول بكونه يستجدي بذلك عطفهم أو مديحهم ،

والثاني بأنه يُحزنهم ويحط من ثقتهم بالله ويحطم من مَثلهم الحي الذي يقتدون به .

فالكاهن أو الخادم لا يكرز بنفسه حتى يكشف لهم ضعف نفسه ، بل هو يكرز بالمسيح ، فعليه بالضرورة أن يكشف لهم قوة المسيح التي بها يخدم والتي منها

(*) وهنا ينبغي أن نحذّر كل إنسان من التمادي في اكتشاف عثراته وهفواته أو الإستغراق في فحص خطاياه وتفرعاتها والتهويل في اتهام نفسه بالخطايا الجسيمة ، لأن ذلك ينبه اللاشعور و يزيد من ثقل الضمير، الأمر الذي ينتهي حتماً بخلل في التوازن العصبي والفكري ، و يعرّض الإنسان للسقوط في أعراض لأمراض عصبية يتعذّر شفاؤها ، بل ربما يستحيل ذلك .

أما المنهج المسيحي الروحاني الأصيل في مواجهة الخطايا فهو يعتمد أساساً على تأنيب الروح القدس لضمير الإنسان بدون افتعال : « ومتى جاء ذاك (الروح القدس) يبكت العالم على خطية » (يو١٦: ٨) . فالذي يريد أن يفتش على خطاياه ، عليه أولاً أن يفتش في كلمة الله ، فبقدر ما تزداد معرفتنا بالله تزداد معرفتنا بخطيئتنا .

يستمدون إيمانهم وحياتهم وقوتهم!!

٣ ــ جيد أن تسقط تحت النير،
وليس جيداً أن تلقي النير عنك:

ما أروع الجندي الذي يسقط في الميدان، وجروحه تنزف و يده قابضة على السلاح!

إن جروحه تحكي قصة نضاله الشجاع، و يده المستميتة على السلاح تشهد بأمانته وشرف جنديته!...

ولكن ميدان الخدمة الروحية أعلى بلا قياس؛ فالجندي لا يموت في الميدان إلا مرة واحدة، أما إذا تجندنا للمسيح «فمن أجلك نمات كل النهار»!! (مز٤٤: ٢٢، رو٨: ٣٦) «في الميتات مراراً كثيرة» (٢كو١١: ٢٣).

الكاهن أو الخادم قد نصب نفسه ذبيحة يوم نصبوه خادماً «قد حُسبنا مثل غنم للذبح» (مز٤٤: ٢٢). إذن فلا تستكثر السهام الحارقة المسمومة التي يرشقها العدو في جسدك وفكرك بلا هوادة، فهي وإن كانت تعمل للموت إلا أنها ستثمّن بالحياة «لأننا نحن الأحياء نُسلَّم دائماً للموت من أجل يسوع، لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا المائت» (٢كو٤: ١١).

فلا تفزع أيها الكاهن والخادم من جروحك ولا ترتعب من سطوة الحرب كمغلوب، فطالما يدك ماسكة بالحياة الأبدية فلن تُغلب!... فقط لا ترخِ يدك عن الإمساك بالرب، ولا يكفّ فمك من الصراخ إليه، ولا تنظر قط إلى الوراء... فهو قادم حتماً، قادم لنجدتك... **ولا تنسَ قط أن رحمة الله وإشفاقه عليك وأنت واقع تحت نيره تئن من جروحك، لا تُقاس برحمته وأنت هارب من ثقل النير!**

٤ ــ نير الخدمة رحمة وسخرة بآن واحد:

أولاً: رحمة لأنه دعاك لتخدمه، فوراء دعوته حتماً قصة اختيار وحب «وأنا أشكر

المسيح يسوع ربنا الذي قواني أنه حسبني أميناً إذ جعلني للخدمة » (١تى ١ : ١٢) . كما أن وراء الدعوة خطة تبرير أكيد بل تمجيد « الذين سبق فعيَّنهم فهؤلاء دعاهم أيضاً ، والذين دعاهم فهؤلاء بررَّهم أيضاً ، والذين بررَّهم فهؤلاء مجَّدهم أيضاً » (رو٨ : ٣٠) . **فالخدمة بهذا الحال دليل رحمة وطريق تبرير،** ليس أن الخادم يبرِّر نفسه ولا أن الناس يبررونه ، بل الذي يبرره هو الله ، فالله هو بر الخادم . أما الخادم فيظل غير مبرَّر في عيني ذاته وكلا شيء بالمرة ! لذلك يكمل بولس الرسول الآية السالفة بقوله : « فماذا نقول إزاء هذا : إن كان الله معنا فمن علينا » (رو٨ : ٣١) ، أي أن تبرير الخادم وقوته وخلاصه من الدينونة هي بسبب انضمامه إلى الله لخدمته ، أو هي حالة ناتجة ومتوقفة على وجود الله معه ووجوده هو مع الله .

إذن فالخدمة هي في حقيقتها دعوة رحمة ، وتبرير، وتبعية لله !

ثانياً : سُخرة ، ولكنها سُخرة محبة ، لأني أنا الذي أقبلت عليها مسروراً كرامة للذي دعاني وقبلتها مقهوراً ؛ مقهوراً من حبه ومن حبي ، لأنه هو سبقني وقبل هذه السُخرة نفسها عني حينما خدم خلاصي بدمه وغسل رجلي باتضاعه ، وبيع كعبد بثلاثين من الفضة ، وسُرَّ أن يموت ثمناً لحريتي . ولكني بعد أن سخَّرت نفسي لخدمة محبته ما عاد لي سلطان أن أستعفي ولا أطلب أجرة !! « لأن الضرورة قد وُضعت عليَّ فويل لي إن كنت لا أبشر» (١كو٩ : ١٦)

هكذا صارت الخدمة مزيجاً من رحمة وسُخرة ، رحمة في بر يمنحه الله ، ولكن لا نستطيع أن نفتخر به ، وسُخرة محبة ننجذب إليها ، فلا نعود نستطيع أن نستعفي منها !!

٥ ـ النير الخفيف الثقيل :

حينما نكون في وضعنا الروحي النشيط نرى نير الخدمة خفيفاً غاية الخفة ، وحينما نتكاسل ونهمل ونتحلل من الواجبات نرتبك ويضيق الأفق الروحي أمامنا فنرتمي في أحضان العقل والتفكير وحينئذ يثقل علينا النير حتى لا يعود يُطاق !! ويتكرر الموقف وتتبادل الخفة مع الثقل على مدى الطريق ، بقدر ما يتبادل النشاط الروحي مع

لا محيص ياآبائي وإخوتي من الإقرار والإعتراف بأن كل ثقل يتراءى لنا في نير الخدمة هو من صنع إهمالنا أو من صنع كبريائنا !

فلا تلوموا أحداً قط على الثقل الذي أصابكم والذي تحسونه بمرارة ... ولكن ابحثوا عن المنفذ ، فلا خلاص من ثقل النير إلا بمضاعفة الصلاة واللجوء إلى الإتضاع في الحال ، حينئذٍ تنقشع الغمامة ، وفي وسط الصلاة ومن على تراب الأرض يلمح الإنسان خفة النير من جديد و يفرح به و يرتضيه ... **والنير هو النير لم يتغير ولم يتبدّل !!**

٦ ـــ جعلتك آية :

من وظائف الكاهن أو الخادم وظيفة يكاد لا يلمحها أحد أو يهتم بها مع أنها ذات أهمية كبيرة ، وهي أن يستخدمه الله كمثل أو نموذج أو آية للشعب . وطبعاً العهد القديم مليء بهذه النماذج ، ومن أعجب هذه النماذج ما أوحى الله به لحزقيال النبي أن ينام على جنبه ثلاثمائة وتسعين يوماً ، وربطه الله بالصبر والثبات ليتمم النبوة ، على أن يأكل أثناءها خبزاً نجساً . وكل ذلك ليكون آية ونبوة لسقوط إسرائيل تحت خطاياها النجسة هذه المدة بعينها ، إنما بدل الأيام تكون سنون . ثم أمره أن يحلق شعر رأسه ولحيته ، و يقسمه و يذريه ، و يلقي ثلثه في النار كناية على زوال رحمة الله وعنايته عن إسرائيل وتبديدهم في أقطار الأرض ووقوعهم تحت نار غضب الله !

ولكن في بولس الرسول نرى نموذجاً جديداً ، فهو يقول عن نفسه : « لكنني لهذا رُحمت ليُظهر يسوع المسيح فيّ أنا أولاً كل أناة **مثالاً** للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية » (١تي ١ : ١٦) . وعلى هذا المنوال تعمل النعمة في كل كاهن مختار من الله وكل خادم ممتلىء من الروح القدس ؛ إذ تجعل من شكله وكلامه وسيرته آية للشعب دون أن يدري أو يحس ... إذ تركز النعمة عملها فيه في ناحية من النواحي فتكشف مسكنته أو بساطته أو بكاءه أو عطفه أو حنانه أو طهارته أو حلمه أو بذله المتناهي أو تسليمه لحياته . والنعمة ، لكي تُظهر ذلك فيه ، تستخدم أحياناً نار الممحص والتجارب والأحزان التي تكون بمثابة النار التي نشعلها تحت البخور فتفيح رائحته .

والعجيب أنه في اللحظة التي يقرر فيها الكاهن أو الخادم أنه لم يعد يصلح لشيء ولا لمزبلة، معتقداً أن التجارب التي أحاطت به هي بسبب خطاياه، و يظن أنها حتماً تخلية من الله، تكون النعمة قد أكملت خطتها والتحمت النار بالبخور وأفاحت رائحة المسيح التي فيه!! وهكذا ومن الصفة الضعيفة ذاتها التي يكرهها الخادم في نفسه، تخرج النعمة آية من آيات رحمة الله!

فلو انفتحت أذن الكاهن أو الخادم اليائس من خدمته بسبب ضعفه، لتسمع رأي الله فيه، لسمعت الآتي: **وأنا من أجل هذا الضعف اخترتُك لتكون آية لرحمي.**

٧ ــ كفء وغير كفء معاً:

لا ينبغي للخادم أن يعتبر نفسه غير كفء للخدمة، كما عليه في نفس الوقت ألا يحس في نفسه أنه كفء من ذاته للخدمة. **فخلاص النفس البشرية ولو أنه ليس هو من عمل الإنسان، إلا أنه لا يتم إلا بواسطة إنسان!!** فالخادم يستحيل أن يعتبر أنه مخلِّص ولكنه هو في الواقع واسطة للخلاص.

و بولس الرسول يقول: «من هو ــ ياتُرى ــ كفءٌ لهذه الأمور»، أي من هو كفء لحياة الناس وموتهم؟ ثم يعود بعد ذلك و يقول: «ولكن لنا ثقة مثل هذه: أنكم أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا معروفة ومقروءة من جميع الناس ظاهرين أنكم رسالة المسيح مخدومة منا... بروح الله الحي... ليس أننا كفاة من أنفسنا أن نفتكر شيئاً كأنه من أنفسنا بل كفايتنا من الله، الذي جعلنا كفاة لأن نكون خدام عهد جديد» (٢كو٣: ٢ــ٦)، علماً بأن ثقة الخادم الراسخة بكفاءته التي يمنحها له الله أولاً بأول، هي أهم وأعظم عوامل النجاح في الخدمة لتمجيد الله.

٨ ــ المديح الحق... والمديح الباطل:

يوجد ثلاثة أنواع من المديح يتعرض لها الكاهن أو الكارز:
إثنان منها مشجوبان وواحد ممدوح. **فالمديح الأول** أن يمدح هو نفسه في ضمير

نـفسـه، وهـذا المديح مشجوب لأنه يفضح الخدمة كلها، و يُظهرها أنها ليست لمجد الله ولـكـن لمجد الـذات «لـيس مـن مـدح نـفـسـه هـو المزكّـى بـل مـن يمـدحـه الـرب» (٢ كو١٠: ١٨). **والمديح الثاني** أن يمدحه الناس علناً بدون مشورة الله وإيحائه، وهذا المـديـح مشجوب أيضاً لأنه يسيء إلى الخدمة و ينقل كرامتها ومجدها الواجب أن يعطى لله و يـضـيـفـه لحـسـاب الخـادم **فينضـرّ** الخادم **وتنضرّ** الخدمة «الذي مدحه ليس من الناس بل من الله» (رو٢: ٢٩).

والمـديـح الـثـالـث «هـو من يمدحه الرب». ومديح الرب للإنسان الذي يعيش بـأمـانـة يـنـطقه الله في قلوب أحبائه وسامعيه، فيحرك قلوبهم وضمائرهم لمدحه اعترافاً بـفـضل الله عليهم «غير سالكين في مكر ولا غاشّين كلمة الله بل بإظهار الحق مادحين أنـفسنا **لدى ضمير كل إنسان قدّام الله**» (٢ كو٤: ٢). و يكون هذا المديح إمعاناً في تـمـجـيـد الله نـفـسـه وإعـلاناً عن عمله الذي تم فيهم. وفي هذا يقول بولس الرسول بمـنتهى الـوضوح: «وأما أنا فأقل شيء عندي أن يُحكم فيَّ منكم أو من يوم بشر. بل لـست أحكم في نفسي أيضاً. فإني لست أشعر بشيء في ذاتي لكنني لست بذلك مبرَّراً. ولكن الـذي يحـكـم فـيَّ هـو الـرب. إذاً لا تحكـموا في شـيء قبـل الـوقـت حتى يـأتي الـرب الذي سينير خفايا الظلام و يُظهر آراء القلوب وحينئذ يكون المدح لكل واحد من الله» (١ كو٤: ٣-٥). ثم يعود بولس الرسول ليحذّر المخدومين من المديح الجزافي الذي يكون بـدون إيحـاء مـن الله قـائلاً: «فهذا أيها الإخوة حوّلته تشبيهاً إلى نفسي وإلى أبلّوس من أجلـكـم لـكي تتعلموا فينا أن لا تفتكروا فوق ما هو مكتوب كي لا ينتفخ أحد لأجل الواحد على الآخر» (١ كو٤: ٦).

والخـادم الـذي يمـدحـه الله بـالحـق في قلوب الناس وضمائرهم لا يحس أبداً بمديح الـنـاس لـه، بـل يـعتبره علامة على نجاح الله في استخدام ضعفه. ولا يرى أن ما قـاله وما علّم به يستحق عليه المديح مهما كان مؤثراً وناجحاً كموسى الذي لم يكن يرى نـور وجه نفسه، بل كان يراه الناس و يرتعبون منه حتى أنه وضع برقعاً على وجهه لكي لا يـرى الـشـعـب مجـده الـزائل !! ... وكان هذا في الحقيقة رمزاً لنور وجه المسيح الذي ينبغي أن نراه كلنا الآن في الإنجيل وفي وجه كل من يقرأ الإنجيل ويخدمه، إنما بالرؤيا الـقـلـبـيـة حـيـث الـنـور الآن هـو حـق المسيح الذي يكشف الخطايا والنجاسة وخفايا

الخزي .

إذن فكل خادم أمين ينظر إلى نور وجه المسيح الذي هو الحق الكائن في كلمة الحياة لابد أن يتحول إلى مثل هذا النور عينه ، كما يقول بولس الرسول : « ولكن عندما يرجع الإنسان إلى الرب يرفع البرقع . ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح » (٢ كو٣ : ١٦ و١٨) .

فكل مجد الخدمة والخدام هو هو بعينه مجد المسيح أولاً وآخراً ... « لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح » (٢ كو٤ : ٦) .

٩ ــ تحولات في طبيعة الخادم :

الذي يحمل نير الخدمة كمتخصص وكمكرَّس لها ، لم يعد له ما لباقي الناس من حقوق الراحة الجسدية والإستمتاع بالخيرات الزمنية والمسرات الطبيعية . فالبقرة التي تحمل الناف (النير) وتخصص للحرث باستمرار ولإدارة السواقي ، لا تعود تحلب لبناً مثل باقي البقرات المستريحة طول النهار في الحظيرة تأكل وتنام ، بل يقل لبنها جداً وتنحني رقبتها وتهزل وتتحول كل عضلاتها إلى عضلات عاملة تناسب خدمتها ، وبمضي المدة لا تعود تقبل ذكراً ولا تحمل ولا تلد !! ونفس هذه التحولات الوظيفية تتم بالنسبة لثور البقر أيضاً !

هكذا في بداية حمل النير يتململ الإنسان جداً بسبب حرمانه من كثير من الحقوق الطبيعية ، ثم بعد مسيرة مناسبة تبتدىء تعزف نفسه عن هذه المسرات ، وأخيراً يسمو الخادم فوقها ولا يعود يحس قط بالحرمان ، بل بالعكس فإنه يحس بالبركة والعناية الإلهية وتعزيات الروح التي تفوق كل مسرات الدنيا . **وثقل نير الخدمة الإلهي كفيل بالصبر مع الأمانة أن يخلق تحولات جوهرية في طبيعة الإنسان ومزاجه !...**

*

١٠ ــ الموت والحياة :

من قوانين الخدمة الأساسية التي ينبغي أن لا تغيب عن فكر الخادم الذي حمل النير وسلم حياته مرة واحدة لله هو قانون أورده بولس الرسول في كلمتين بعد أن ذاقه وتمرن عليه وانتهى إلى تحقيقه «**إذن الموت يعمل فينا، ولكن الحياة فيكم**» (٢كو٤ : ١٢). وفي موضع آخر أورده هكذا : «**أُنفِق وأُنفَق من أجلكم**». ولكنه شرحه بوضوح في قوله «لأننا نحن الأحياء نسلَّم دائماً للموت من أجل يسوع لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا» (٢كو٤ : ١١).

ومعنى هذا القول عميق وعظيم ، وهو باختصار صورة تطبيقية لعملية الصلب التي جازها المسيح بارادته عن **ضعف شاءه لنفسه وهو قوي** .

وقلنا أنه قانون أساسي في الخدمة لأن المسيح هو الذي سنَّ صيغته وقام بتطبيقها في جسده وفي نفسه : «إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها ، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير» (يو١٢ : ٢٤). وقد لمح بولس الرسول هذا القانون ، فقام بتفسيره لاهوتياً فقال : «إن كان واحد قد مات لأجل الجميع ، فالجميع إذن ماتوا . وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢كو٥ : ١٤).

الخادم تنسحق نفسه و يذبل جسده أمام عينيه يوماً بعد يوم بسبب نير الخدمة الذي هو الصليب عينه . وعملية الموت التي يجوزها بإرادته من أسهار وأصوام وصلوات وتنسكات ، والإهتمام الزائد بأمور الرعية والمخدومين ، تمشي جنباً لجنب مع عملية الموت التي يجوزها رغماً عنه من أمراض وأعواز وضيقات ومكائد واضطهادات التي تبدو وكأن لا حل لها ولا بديل عنها ...

ولكن هذا الموت بصورته المزدوجة الإرادية وغير الإرادية هو في حقيقته ليس موتاً جزافياً ، بل هو موت للرب ، موت صليبي ينبثق منه ومعه وبنفس درجاته وعمقه قيامة وحياة ، لا في نفس الخادم فحسب بل وفي كل من كان يصلي عنهم و يتألم من أجلهم و يسهر لراحتهم و يصوم نيابة عنهم و يتوب و يتذلل باسمهم !

فكما مات الرب وكان موته مجداً له وحياة لمن مات عنهم ، هكذا كل من مات مع الرب حباً وكرامة لاسمه و بذلاً وفدية عن أولاده الخطاة !

١١ ــ مختلين وعاقلين :

قانون أساسي آخر في الخدمة ، إن سهينا عنه ثقل علينا النير وضاقت أنفسنا فينا ... وقد لخصه بولس الرسول هكذا : « لأننا إن صرنا مختلين فلله أو كنا عاقلين فلكم » (٢ كو ٥ : ١٣) . فالمناداة بالإنجيل لابد وأن تبدو لكثيرين أنها غير معقولة بل وغير عاقلة ، فالإله المصلوب لا يفهمه ولا يستسيغه العائشون في الظلمة لأنهم لا يحسون بجسامة الخطيئة وفعلها المميت للنفس . كذلك فالطهارة شيء ينكره العالم لأنه لا يعرف مصدر قوتها ، والصوم الكثير يستثقله المحبون للذات الأطعمة ، والمتشبثون بصحتهم ومزاجهم ولا يرون أهميته وخطورته بالنسبة لأرواحهم لأنهم يعيشون حسب الجسد وليس حسب الروح ، والحشمة في الملبس والسلوك والكلام يهاجمها الإباحيون السائرون وراء غرائزهم وميلهم لإستعراض أجسادهم ، والتواضع الحقيقي والمسكنة غير المصطنعة التي بالروح صفة يمقتها المتعظمون بذواتهم الطامحون للمجد والشهرة .

وهكذا فخادم الإنجيل والكارز بوصايا الروح بقدر ما يكون أميناً ودقيقاً في المناداة بهذه الوصايا ، كرامة لإلهه ، بقدر ما يُذم كمختل العقل و يبغض و ينتقد من الدنيويين والشهوانيين والحكماء حسب الجسد والعقلانيين الذين يتدبرون بمقتضى قوانين الصحة والطبيعة .

فإذا لم يقبل الخادم ، منذ البداية ، أن يكون محسوباً مختلاً في نظر هؤلاء جميعاً ، كقضية مسلَّم بها ، فإنه يقع حتماً في صراع داخلي مع نفسه . وخصوصاً إذا هو حاول أن يبدو عاقلاً لدى هؤلاء المستهترين والحكماء في أعين أنفسهم ، **فإنه سيقع في الرياء والممالأة وإنكار القيم الروحية الخالصة لمصالحة القيم العقلية المادية .**

إذن فلا مفر أمام الخادم الأمين أن يقبل هذا الحكم الصارم من العالم ، لأنه إن

كان مختلاً فلله ومن أجل الله :

وعلى نفس النمط تماماً ، إن اعتُبر عاقلاً وحكيماً ورزيناً في نظر أولاد النور الطالبين وجه الله ، فهو إنما يكون عاقلاً لهم وليس لنفسه ، **لأن الله لا يمنح الخادم الحكمة الروحية ورزانة التعبير وبصيرة الخدمة لذات الخادم وإنما للآخرين : « كأن الله يعظ بنا »** (٢ كو٥ : ٢٠) .

١٢ ــ خطاة مبررون :

من المبادىء العظمى في حياة الخادم التي تفتح أمامه مجال الخدمة طولاً وعرضاً بضمير شجاع غير مضطرب ، المبدأ الذي يتخذه إزاء موقفه من حياته الأولى خصوصاً إذا كانت مزدحمة بالخطايا والعثرات ... فهو وإن كان يعرف نفسه تماماً من هو وكيف كان يعيش حسب أهواء الجسد ، إلا أنه الآن أصبح في المسيح إنساناً آخر...

هنا نستعير من اللاهوت حقيقة إيمانية حية عاشها بولس الرسول حتى أعماق أعماقها ، وهي أننا الآن بسبب المسيح معتبرون لدى الله أننا لسنا نحن أنفسنا الذين كنا بالأمس : « الأشياء العتيقة قد مضت » (٢ كو٥ : ١٧) . فالمسيح بحبه الجبار الفعال وبجسده الإلهي المتغلغل في كياننا جمعنا وحصرنا في شخصه وفي حياته المقامة : « محبة المسيح تحصرنا » (٢ كو٥ : ١٤) . لقد متنا مع المسيح لما مات المسيح عنا وقمنا معه ونحن الآن قائمون فيه « إن كان واحد قد مات لأجل الجميع ، فالجميع إذن ماتوا » (٢ كو٥ : ١٤) فنحن الآن لسنا نعيش بأنفسنا ولا لأنفسنا الأولى القديمة « كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام » (٢ كو٥ : ١٥) . أنفسنا الأولى ماتت ، والآن نحن بالمسيح أشخاص آخرون « هوذا الكل قد صار جديداً » (٢ كو٥ : ١٧) . صفاتنا الأولى غير محسوبة ، خطايانا الأولى غير محسوبة « غير حاسب لهم خطاياهم » (٢ كو٥ : ١٩) .

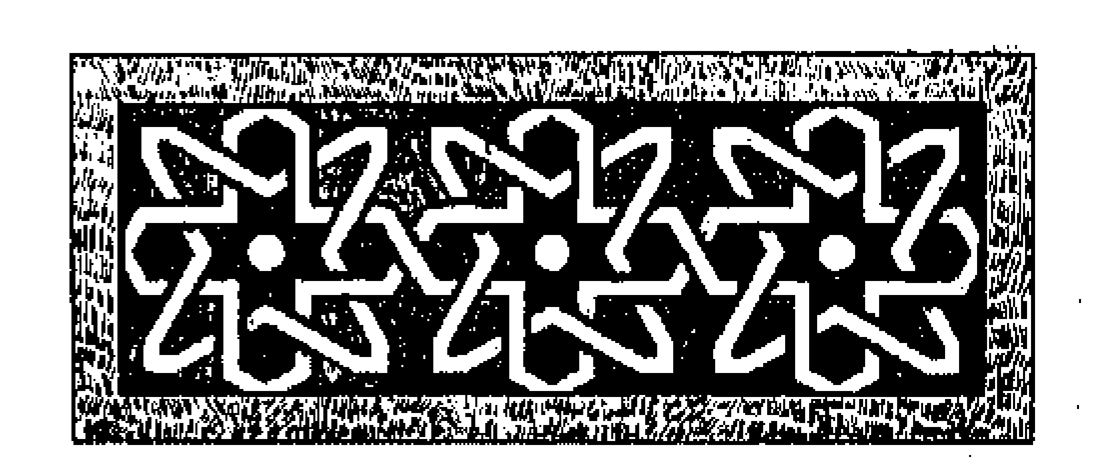
إذن فنحن الآن كخدام غير ممسوكين بصفاتنا الميتة ولا منظورين أمام الله بأشكالنا الأولى المنتنة ، لذلك أصبح لزاماً علينا أن نتعرف على شكلنا الجديد المخلوق بالروح حسب النعمة والحق الذي في المسيح « إن كان أحد في المسيح فهو خليقة

جديدة » (٢ كوه : ١٧) .

فالآن نحن محسوبون أمام الآب السمائي أبراراً بسبب المسيح « نحن بر الله فيه (أي في المسيح) » (٢ كوه : ٢١) ، لأننا عمله ومفديوه وثمرة صليبه ، وقد لبسناه روحياً فاختفت من أمام الله معالم شخصياتنا الأولى ، وما نحياه الآن لا نحياه لأنفسنا نحن كأنه للجسد بل المسيح هو الذي يحيا الآن فينا بالروح ، وغاية معيشتنا ليست الآن لأنفسنا بل للذي مات عنا وقام بهذه الروح وبهذا الإيمان المسيحي الحي .

وبهذه الحقيقة الإلهية المعاشة يستطيع الخادم أن يرفع عينه من النظر إلى نفسه الأولى و يثبت قلبه وفكره وعينه في وجه المسيح وصفاته بعزم وإصرار ولا يرتد حتى يتغير بالروح إلى الإنسان الآخر، إلى الصورة الجديدة ، إلى شكل المسيح نفسه ، من مجد إلى مجد !!

إذن فالخادم الذي يخدم المسيح لا يخدم بنفسه حاملاً وراءه ثقل جسده بماضيه المعثر أو بحاضره العاجز، بل ببر من المسيح يخدم ، و ببر من المسيح يتكلم ، و ببر من المسيح يعظ و يوبخ !! « لأنه جعل الذي لم يعرف خطية ، خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه » (٢ كوه : ٢١) .



الفصل الثاني

في عثرات الخادم

المؤمن العادي إذا عثر في حياته وعجز أن يوفي حق شجاعة الإيمان بالمسيح وضريبة الملكوت التي قد تصل إلى الموت ، فعثرته تكون محصورة في إطار مسئوليته الخاصة عن نفسه ، أما الكاهن أو الكارز فعثرته تتجاوز حياته وتمتد لتحطم أركاناً كثيرة في الخدمة ، لأنها تؤثر تأثيراً مباشراً وخطيراً على إيمان **الضعفاء** بل وعلى **زملائه** في النير والرسالة . وفي النهاية ، يتعدى اللوم الواقع على الكارز ويمتد فتُلام الخدمة ذاتها بل ورب الخدمة أيضاً !...

ونحن هنا لسنا بصدد العثرات الشخصية ذات المستوى الحطيط من محبة جمع المال وشهوة الغنى والرئاسة والترفع والكبرياء والغضب والكذب ، أو الإنصباب وراء نزوات الجسد من خمر وتدخين ، وبقية الصفات المرذولة والسيرة المنحلة ، فهذه ليست عثرات خادم أو كاهن بل هي عثرات إنسان لم يبلغ بعد إلى قامة الموعوظين .

أما عثرات الخدمة التي نقصدها فهي **عثرات نوعية** ، أي ذات صلة مباشرة بروح الخدمة وظروفها وطبيعتها . فحينما قال بولس الرسول « لسنا نجعل عثرة في شيء لئلا تُلام الخدمة » ، بدأ بعد ذلك يحدد مصادر عثرات الخدمة وأنواعها محاولاً تلافيها واحدة فواحدة . ونحن هنا نعرض لها باختصار .

« ولسنا نجعل عثرة في شيء لئلا تلام الخدمة بل في كل شيء نظهر أنفسنا كخدَّام الله في :

صبر كثير ، في شدائد ، في ضرورات ، في ضيقات .
في ضربات ، في سجون ، في اضطرابات ، في أتعاب .
في أسهار ، في أصوام ، في طهارة ، في علم .

في أناة، في لطف، في الروح القدس، في محبة بلا رياء.
في كلام الحق...» (٢ كو٦: ٣-٧).

١ ـــ عثرة قلة الصبر:

«بل نُظهر أنفسنا كخدام الله في صبر كثير» :

إذن، فأول ما يعثر الخدمة قلة صبر الخادم سواء بالنسبة للصعوبات التي تعترض العمل ذاته، أو بالنسبة لاستهتار المخدومين ومراوغة الرعية وعدم الإذعان للتعليم والتوبيخ.

هنا يكون عدم صبر الخادم فرصة لزعزعة الخدمة كلها، وإساءة مباشرة لإمكانية المناداة بالإنجيل عموماً، بل وضربة مسددة لقيمة الكرازة والإيمان، لأن قلة صبر الخادم تشكل بحد ذاتها حالة ضعف إيمان. فالملامة هنا تتعدى شخص الخادم وتبلغ إلى صميم عمل الكنيسة وقوتها. فأفضل ألف مرة أن يبقى الخادم في موقعه يكرر شهادته ليل نهار محتملاً التعب بأقصى صبر حتى إلى الموت من أن يلقي بالنير ويهرب، معرضاً الخدمة للملامة وضعف الثقة...

و ينبغي هنا أن لا يغيب عن بالنا أن هذه عثرة شائعة في الخدمة، وقد واجهها بولس الرسول مرات عديدة إنما بشجاعة وعناد وصلابة لا تقهر «فإننا لا نريد أيها الإخوة أن تجهلوا... ضيقتنا التي أصابتنا... ، **فإننا تثقلنا جداً فوق الطاقة** حتى أيسنا من الحياة أيضاً، **لكن** كان لنا في أنفسنا حكم الموت... لم يكن لجسدنا شيء من الراحة بل كنا مكتئبين في كل شيء، من خارج خصومات، من داخل مخاوف، لكن الله الذي يعزي المتضعين عزّانا» (٢ كو١: ٨، ٧: ٥و٦). هنا تتضح لنا أهمية مطلقة في خبرة بولس الرسول في صبر الخدمة التي تتركز في كلمة «كثير»: في صبر «كثير».

٢ ـــ عثرة الجزع من الشدائد :

حمل نير الخدمة ليس مقصوراً على الكلام الهادىء والكرازة المفرحة والتعليم

بالراحة ، بل نير الخدمة هو أساساً حرب !! حرب ضد قوات الظلمة ، لأن الخطاة والمستهترين والمتهاونين تشددهم أرواح مضلة وتسيطر على أفكارهم قوات شريرة مخادعة وعنيدة .

فالخادم معرَّض دائماً أبداً أن يتواجه مع هذه القوات وجهاً لوجه ، ومع فخاخها المنصوبة وضرباتها ونقمتها ، تهيِّج عليه الأشرار وتثير ضده السلطات وتعرقل طرقه وتبث حوله الشكوك وتبلبل أفكار الناس من جهة نياته وكلماته .

إذن ، فالشدائد لازمة من لوازم الخدمة باعتبار أن **الخدمة تتضمن فك قيود الخطاة من سلطان الشيطان ، فهي عمل هجومي وعدائي بالنسبة لقوات الظلمة .** فإن خارت قوى الخادم وانهار واستسلم مغلوباً إزاء المحن والشدائد التي يرتبها العدو ، وخصوصاً في بداية خدمته ، مهما كانت الأسباب ، فإنه يعري الخدمة و يفضحها .

فالخادم يلزمه بكل إلزام ، أن يتسلح بالإحتمال والقوة والعناد الصابر وعدم الجزع إزاء الشدائد ومكايد الشيطان حتى الموت !! و بولس الرسول يخاطب خدام البشارة والمنادين بإنجيل السلام ، محذراً ومشجعاً : « يا إخوة **تقووا في الرب وفي شدة قوته ،** إلبسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن **تثبتوا ضد مكائد** إبليس . فإن مصارعتنا ليست مع لحم ودم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ضابطي ظلمة العالم لهذا الزمان مع أرواح الشر في السموات . من أجل ذلك احملوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن **تقاوموا في اليوم الشرير.** و بعد أن تكملوا كل هذا **أن تثبتوا . فاثبتوا** ممنطقين أحقاءكم بالحق ولابسين درع البر (بر المسيح) ، **وأرجلكم مستعدة** للبشارة بإنجيل السلام . حاملين فوق الكل ترس الإيمان الذي **تقدرون أن تطفئوا به جميع سهام الشرير** الملتهبة ، وخذوا خوذة الخلاص وسيف الروح الذي هو كلمة الله . مصلين في الروح بكل صلاة وطلبة كل وقت ساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة ... » (أفسس ٦ : ١٠ ــ ١٨)

٣ ــ عثرة الفزع من الضرورات :

والضرورات التي يقصدها بولس الرسول تشمل ثلاثة أنواع :

١ ــ الضرورات الناتجة من قسوة الطبيعة من حر و برد ومطر وعواصف وأهوال الجبال والوحوش المفزعة .

٢ ــ الضرورات الناتجة من عوز الأشياء اللازمة للجسد والحياة اليومية سواء لنفسه أو لأسرته أو لرعيته ، والتي ينشأ عنها الجوع والعطش والبرد وعدم الراحة .

٣ ــ الضرورات التي تنشأ من الوقوع في الأمراض والآلام .

هذه الضرورات بأنواعها تواجه الخادم كل يوم في رحلاته وسفراته على مدى حياته ، ولابد أن يصطدم بها جميعاً كحقيقة واقعة لا محالة ، غير أنها لا تأتي عليه جزافاً بل هي **بسماح من الله ، توزن وزناً دقيقاً يتناسب مع خلاص الخادم وإكليله** ، غير أن الشيطان يتفنن في انتخاب أنواعها **غير الملائمة** للإنسان ويختار **أوقاتها المفاجئة** والخطرة بدهاء منقطع النظير و بطريقة لا تدعو إلى الشك أنها جزء من حرب علنية وسافرة .

فإذا ارتعب الخادم من مصادمة هذه الأهوال وفقد سلاح الصلاة الوحيد ، **وابتدأ ينشغل بها محاولاً تفاديها بطرق غير مشروعة بالرشوة مثلاً أو بالتملق أو بالتهديد** ، أو ابتدأ يتململ و ينظر إلى الوراء نحو طريق الرجوع والهرب ، يزيد العدو بسرعة من ضرباته وتخويفاته ، و يرعب قلبه ليلقي أسلحته مرة واحدة ويهرب تاركاً وراءه ميدان الخدمة مكشوفاً ومفضوحاً !! مع أن هذه الضرورات والمفزعات بكل أنواعها لا تعدو أن تكون كأصوات المفرقعات التي لا تحوي رصاصاً ، التي يمكن للإنسان أن يجابهها وجهاً لوجه فيكتشف تفاهتها وانعدام قوتها .

فأهوال الطبيعة وأعواز الجسد وكافة الأمراض والآلام يستطيع روح الله القدوس أن يحولها إلى وسائط أساسية وقوية لإنجاح الخدمة والكرازة وإظهار مجد الله ، إذا استطاع أن يصمد الخادم أمامها و يقبلها بشكر ، و يعبرها بابتسام حتى النهاية ، **فالله دائماً يتمجد بصورة خاصة في الضرورات إنما في آخر هزيع من ليل التجارب الذي يبدو طويلاً** . وقصص أعمال الله في وسط الأعواز والضرورات كثيرة جداً

ومشجعة للغاية .

ولكن أخطر سقطة يتردى فيها خادم الله هو اللجوء إلى المال والغنى لتأمين المستقبل : « وأما التقوى مع القناعة فهي تجارة عظيمة . لأننا لم ندخل العالم بشيء ، وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء . فإن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما . وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون في تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة تغرق الناس في العطب والهلاك . **لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة** » (١تى٦ : ٦-١٠) .

٤ ــ عثرة الفشل في احتمال الضيقات :

والضيقة التي يعنيها بولس الرسول هي المأزق الذي يضيِّق على الإنسان من كل جهة ، حيث يقع في مواقف أعلى وأكبر من احتماله وقدرته ، سواء الجسدية أو العصبية أو الفكرية أو حتى الروحية ، حيث يواجه الإنسان شبح الإخفاق الكامل يطّبق عليه من كل جانب و يتلمس أي معونة من أي إنسان فلا يجد ، حتى يفقد كل الثقة بنفسه و بكافة الإحتمالات الممكنة ، فينحصر الإنسان في أضيق نطاق من التفكير والأمل و يواجه الفشل عياناً . **هنا صراع الإيمان ، هنا صراع الرجاء ، هنا التمسك بوعد الله !!** حيث يقف الإنسان أحرج مواقف الشهادة لله والأمانة للخدمة ، حيث يلح الشيطان على الخادم أن يعلن فشله و يرتد ، **مع أن معونة القوة الإلهية مستعدة ومتأهبة رهن ثباته ، وانفتاح باب المنفذ الموعود به متوقف على قدرته في التمسك بالرجاء الحي في تحدي المستحيلات حتى النهاية ، والخلاص الذي أعده الله للذين يجاهدون باسمه ينتظر بلوغ الإيمان أعلى قمته للمسير في الظلام !!**

فالذي ينبغي أن يعرفه الخادم منذ البدء ، بل و يلزم أن يثق به و يتيقن منه تماماً ، أن العدو يبدأ يجمع له منذ أول ساعة كافة الأدلة السلبية والنقط التي ينغلب فيها أولاً بأول ويحفظها له ليقدمها في ساعة الضيقة حيث تبلغ الظلمة كثافتها العظمى ليدلل له من واقع حياته وسلوكه على حتمية الفشل ومعقولية الهروب !

ولكن أيها الخادم ، قف ثابتاً ، واهدأ ، وتمسك بالعناد الصابر حتى تعبر ساعة

الظلمة و يكف هتاف الأشرار وحينئذ يتحقق لك انكسار العدو وتفرح و يعظم انتصارك بالذي أحببته وأحبك . واذكر في هذه اللحظات قول بولس الرسول : « لأن الله لم يعطنا روح الفشل بل روح القوة والمحبة والنصح » (٢ تي ١ : ٧) .

٥ ــ عثرة الإنهيار تحت الضربات :

كان الرسل والكارزون قديماً يتعرضون فعلاً للضرب بالعصي أو بالسوط على جسدهم العاري ، بقصد أن تنهار قوتهم تحت وطأة الضرب والجروح الموجعة ، فتنهار نفوسهم من وقع الفضيحة ، حتى ينكروا الإيمان و يرتدوا عن الخدمة والمناداة بالإنجيل و باسم يسوع . هذه صناعة الشيطان وأعوانه منذ البدء وقد حاولها مع المسيح نفسه في جثسيماني « **أضرب الراعي فتتبدد الرعية** » !!

ولكن الآن ، غيَّر الشيطان أسلوب التعذيب ولكنه لم يغيِّر التعذيب ؛ فالضربات هي هي ولكن بدل أن تكون بالعصي والسوط كفضيحة جسدية أصبحت بالإضطهاد والتشهير والإمتهان كفضيحة نفسانية ، مع التضييق والحرمان بقسوة من أبسط الحقوق ، مما تتأذى له النفس أشد ألف مرة مما كان يتأذى له الجسد . والقصد واحد هو أن تنهار قوة الكارز وعزيمته تحت وطأة الضرب المتواصل والتعذيب النفسي فيتوقف و يرتد تاركاً ميدان الخدمة نهباً للنقَّاد والشامتين ومسرحاً للشياطين ...

ولكن قد نبه الرسل قلوبنا إلى هذه المكيدة عندما تنبهوا هم لها أولاً بالنعمة ، فلما احتجزوهم في المجمع وضربوهم بالسياط خرجوا فرحين ولم تنهار نفوسهم من الفضيحة والألم ، عندما حسبوا ذلك أنه من أجل اسم المسيح !!

إذن فكل فضيحة أو عار أو تشهير ينالنا ونحن حاملون نير المسيح ، هو محسوب لنا كذبيحة نقدمها كرامة لاسم المسيح ، بل هو بالحقيقة شركة في ذبيحة المسيح عينها .

« اذكر يسوع المسيح ... الذي فيه احتمل المشقات **حتى القيود كمذنب** ... » .

« الذي جُعلتُ أنا له كارزاً ورسولاً ومعلماً للأمم . لهذا السبب أحتمل هذه

الأمور أيضاً لكنني لست أخجل لأني عالم بمن آمنت، وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتي إلى ذلك اليوم . فلا تخجل بشهادة ربنا ولا بي أنا أسيره بل **اشترك في احتمال المشقات لأجل الإنجيل** بحسب قوة الله » (٢تى ٢: ٨و٩، ١: ١١و١٢و٨).

٦ ــ عثرة الهروب من هول السجون :

السجن يُعتبر وسيلة للتضييق على النفس حتى يختنق رجاء الإنسان و يستسلم أخيراً و يكف عن اصراره على المناداة بالإنجيل . ولكن قد تتم عملية السجن نفسانياً وليس مكانياً ، فمحاصرة نشاط الخادم وكرازته ومراقبة أقواله وأعماله وإنتاجه ومنعه من الإتصال بأبنائه وتلاميذه ومريديه هو نوع حديث من السجون ، إذا رفض الخادم أن يتقبله ولم يرتض أن يعمل في حدوده وقيوده ، ضاقت نفسه فيه وتمزقت روحه وتوترت أعصابه . وفي النهاية لا يمكن أن يفلت من التذمر والشكوى التي تنتهي به إلى الذبول والإنحصار وترك مجال الخدمة للمفسدين والعابثين .

والذي ينبغي أن ننتبه إليه أن السجن بكل أنواعه قرين الخدمة منذ أيام الرسل حتى اليوم ، ولا مفر من قبول قيوده وسلاسله سواء المنظورة أو غير المنظورة ، جسدية أو نفسانية أو عقلية ، فهو إحدى الوسائل المضادة التي يشهرها العالم وكل من يعمل لحساب العالم ضد خدام الإنجيل والكرازة باسم المسيح .

كما ينبغي أن ننتبه غاية الإنتباه إلى أن مجرد الإستسلام للشكوى أو التذمر أو القلق بسبب الاحساس بهذه القيود ، هو كفيل أن يتدرج بالخادم إلى أن يوقعه في التمزق والثورة الداخلية التي تنتهي حتماً بنكران الخدمة والإساءة للاسم الكريم وإهانة معنى الكرازة بالصليب !!!

أيها الخادم تذكر قيود المسيح التي ارتضاها وسار تحت رباطها حتى إلى الصليب !!

وتذكر بولس الرسول ، سفير السلاسل ، الذي اعتبر ترحيله من سجن فلسطين إلى سجن روما وهو مقيد بالسلاسل أنه سفارة في صميم الخدمة لحساب المسيح ، ولكنها سفارة في قيود .. وما أحلاها وما أغلاها قيوداً ، هذه التي قال عنها يوحنا ذهبي الفم مرة أنه لو خُيِّر أن يختار لنفسه موهبة من بين مواهب بولس الرسول المتعددة لاختار السلاسل !!

٧ ــ عثرة التخاذل في الإضطرابات :

الاضطرابات إما مفتعلة أو طبيعية . فالشيطان قد يثير الشغب والهياج ضد الخادم ، كما حدث لبولس الرسول في أفسس حينما قامت المدينة كلها بزعامة صانعي تماثيل أرطاميس تصرخ وتذري التراب في الهواء ضد بولس الذي جاء ليفسد عليهم أرباحهم ويحط من شأن عبادتهم . والعدو يُحكم مثل هذه الثورات و يتصاعد بها حتى الذروة ليخيف قلب الخادم و يرعبه و يوقعه في التخاذل والهروب .

وقد تكون الاضطرابات طبيعية بسبب أيام الحروب أو الثورات أو المجاعات أو الأوبئة ، وفيها يضغط العدو على قلب الخادم وفكره حتى ينطوي تحت هذه المؤثرات ، فيكف عن النطق والخدمة و يلوذ بالفرار أو ينتهز الفرص ليؤمِّن لنفسه ولذو يه السلامة ، فيترك الرعية ويهرب معرِّضاً إياها للتشتت والتمزق وهي أحوج ما تكون إلى من يقودها في هذا الإعصار و يعبر بها مناطق الخطر كقطيع موحد متآزر يصلي معهم وبهم و يتضرع إلى أن يجوز الإضطراب . **في هذه الأوقات العصيبة ، يتبين الراعي الصالح بالحق من الراعي الأجير** حيث هروب الراعي خوفاً على حياته معناه هلاك كل الرعية !!

٨ ــ عثرة الراحة في وقت ينبغي فيه التعب :

كما يلتزم الزارع بأوقات للعمل المتواصل السريع الذي لا يعرف الراحة أو الكسل ، سواء التي يحرث فيها أرضه للزرع قبل حلول فصل المطر أو التي يضع فيها الأسمدة أو التي يحصد فيها الثمر، بحيث لو توانى أو تكاسل ، ضاع عليه الموسم أو انضر زرعه أو تلف حصيده ، فيقف حقله وسط الحقول عارياً كئيباً يقص على الرائح والغادي قصة كسل رخيص أو عجز محزن ، أما هو فلا يجد ما يجيب به على ملامة الناس ولا يجد ما يوفي به حاجته .

هكذا تماماً تقف الكنيسة الخالية من المؤمنين والمصلين في أيام الآحاد ومواسم الصوم والصلاة ، تقص قصة توانى رعاتها وخدامها الذين تركوا الخدمة الروحية ،

وذهبوا ليحرثوا في البحر ليحصدوا الريح ... و يا للأسف و يا للملامة . وما هذه الصورة المحزنة الكئيبة إلا مقدمة لما سيتم أمام منبر المسيح حينما يقف أصحاب المواهب والمؤتمنين على الأسرار الذين طمروا الموهبة في وحل المال أو الإهمال .

إن راحة الخادم الحقيقية محفوظة له في السموات مع سيده الذي كان ينبغي أن يتألم أولاً ثم يدخل إلى راحته ... **فالراحة الحقيقية لن نجدها هنا** ، بل هي مذخورة لنا مع المسيح بكيل فائض في السموات . كما يقول بولس الرسول : « ولمن أقسم لن يدخلوا راحته إلا للذين لم يطيعوا ، فلنخف أنه مع بقاء وعد بالدخول إلى راحته يُرى أحد منكم أنه قد خاب منه ... فلنجتهد أن ندخل تلك الراحة لئلا يسقط أحد في عبرة العصيان هذه عينها » (عب٣ : ١٨ و٤ : ١ ، ١١) .

إذن فهنا زمان التعب ، كما يقول بولس الرسول : « ولم يكن لجسدنا شيء من الراحة » (٢ كو٧ : ٥) . ولكنه تعب مقدس وثمين ، تعب يثمر راحة وخلاصاً أبدياً .
هذا هو التعب الذي سيجعل وجه الراعي والخادم يضيء بالمجد أمام الله :
« والفاهمون يضيئون كضياء الجَلَد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور» (دا١٢ : ٣).

٩ ــ عثرة النوم في السهر:

كم كان مؤلماً على قلب المسيح أن ينام التلاميذ في ساعة من أشد ساعات المسيح حاجة إلى اليقظة والسهر... ثلاث مرات وهو يحاول أن يوقظهم !! مع أنه سبق ونبه أذهانهم أن اسهروا اسهروا وصلوا لكي لا تدخلوا في تجربة ! ... كما سبق ونبه قلوبنا في مثل رب البيت الساهر **أن الشيطان** ينتهز **فرصة الغفلة العقلية والفكرية ، فيتسلل وينقب بيت الإنسان** الروحي و **يسرق وينهب ويبدد كل ما اختزنه الإنسان بعرق الصلاة ودموع** التوبة ...

الذئب اللئيم لا يهجم على قطيع الراعي الساهر اليقظان ولكنه يجول بين القطعان يفتش عن راعٍ افترش الأرض وغطّ في نوم عميق ... فيجد الفرصة مواتية ليهجم على الغنم ويمزقها ...

الكاهن الساهر لا يدع كنيسته تنقب، ولا يفرط في خروف واحد ولا في نعجة صغيرة. إنه يضع حياته مقابل أصغر غنمة !! إنه يغامر بحياته كلها لأنه يعلم أن حياته محفوظة ومؤمَّن عليها في السموات. فلو ضيَّع حياته هنا من أجل المسيح فسيأخذها منه هناك مكللة بالمجد، ولكنه إذا غطي وجهه ونام وضحى بالغنمة ليخلِّص حياته وينجو بنفسه من الخطر، فقد أهلك روحه وأسلمها لدينونة بلا رحمة وألبسها العار والخزي الأبدي.

فالكاهن أو الخادم هو حارس غنم قبل أن يكون واعظاً أو معلماً !! ومن يده سيُطلب الضائع، وعليه دم القتيل !!

١٠ ــ عثرة التحلل من الأصوام:

البطن المملوة بالأطعمة المزدحمة بالمشتهيات لا تلد بنين روحيين.

الصوم والصلاة هما آلام المخاض الروحاني للراعي، اللذين بواسطتهما يتصوَّر المسيح في أولاده الجدد «يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضاً إلى أن يتصور المسيح فيكم ... في تعب وكد، في أسهار مراراً كثيرة، في جوع وعطش، في أصوام مراراً كثيرة» (غل ٤: ١٩، ٢كو ١١: ٢٧).

إذا زيَّن الإنسان هيكل قلبه بالصوم والصلاة، تأهَّل لسكنى الروح القدس، وحينئذ تفقد البطن سلطانها على الإنسان، وإذا زيَّن بطنه سكنتها الشهوة وتسلطت عليها كإله «الذين إلههم بطنهم» (في ٣: ١٩).

الراعي أو الخادم الذي لا يمارس الأصوام والتقشفات بحدودها المقررة، عن نفسه وعن خدمته ورعيته، فإنه يسقط من مرتبته الروحية ولا يستطيع أن يبقى أميناً لتدبيرات الكنيسة وقوانينها، بل تجده دائم التبرم من أنظمة الكنيسة ويهاجم تقليداتها وبالأخص من جهة أصوامها ... وهذا الصنف من المتذمرين والمتململين قديم في الكنيسة: «وأطلب إليكم أيها الإخوة أن تلاحظوا الذين يصنعون الشقاقات والعثرات خلافاً للتعليم الذي تعلمتموه، واعرضوا عنهم لأن **مثل هؤلاء لا يخدمون ربنا يسوع المسيح بل بطونهم**» (رو ١٦: ١٧و١٨).

ومعلوم منذ البدء ومستقر لدى الآباء بالخبرة النسكية التي لا تحتمل الشك ، أنك **إذا أردت أن تبتدىء بأي فضيلة أو أي عمل روحاني أو أي خدمة لائقة بالرب فابتدىء بالصوم ! ...**

فإذا تحلل الراعي أو الخادم من الصوم كدستور دائم له ولرعيته ، فإنه دون أن يدري ودون أن يلاحظ تتحول خدمته الروحية إلى مجرد خدمة اجتماعية ، تنحل بالتدريج لتتحول في النهاية إلى نشاطات إنسانية ، يعمها التهريج والمظاهر والحفلات ، ولا يبقى لها من الروح إلا الخطب والألفاظ و بعض آيات من الإنجيل تُحشر حشراً لإسكات « المتطفلين » ! ...

١١ ــ عثرة الطهارة :

ما أحلى رائحتك أيها الكاهن الذي فطم نفسه عن الشهوة(*) ،
تفوح منك ياأخي رائحة البتول بل رائحة المسيح الزكية لله ،
كل من يتنسم رائحتك يحس بالطهارة وقوة الخلود تسري في أحشائه ،
آه من منظر عينيك الذابلتين المرتسم عليهما وجه العذراء ، بل وجه الله ،
بريق الخلود يشع منهما فيبدد الشهوة من قلوب ناظريك ،
لماذا تتكلم كثيراً أيها الطاهر البتول ؟ إن منظرك عظة ، ووقوفك رجاء ، وجلوسك سلام وابتسامتك بهجة ، ودموعك تحل الخطية من الأعضاء !!

(*) من تقاليد الكهنوت الموروثة ــ عرفياً ــ في الكنيسة التي ظلت سارية إلى عهد قريب جداً ، وربما لا يزال كثيرون يحافظون عليها حتى وقتنا الحاضر ، أن الكاهن الذي ربى أولاده ودُعي للكهنوت ، يكف نهائياً عن مباشراته الجنسية..

وإليك تقريراً من المؤرخ سقراط :

[في الشرق ، كل الكهنة وحتى الأساقفة أنفسهم يتعففون عن زوجاتهم . ولكن ذلك يفعلونه بمحض اختيارهم ، إذ ليس هناك أي قانون يلزمهم بذلك كضرورة . إذ أنه كان بينهم أساقفة كثيرون الذين كان لهم أطفال من زوجاتهم الشرعيات خلال فترة أسقفياتهم]

Socrates, Hist. Eccl., v. 22.

أنظر يا أخي أن لا تخور في جهادك، فإكليلك يتلألأ فوق رأسك محمولاً على أيدي ملاك ومكتوب عليه: هنا صبر القديسين!!

أنت لست وحدك، معك مجاهدون يؤازرونك بالدموع. وتنهدك تضج له الملائكة في السموات، آلامك محبوبة وأنينك نغم يلذ أرواح الأبرار.
تقوَّ وتشدد ليتقوى بك المنتظرون الخلاص علانية...

* * *

حينما ربط المسيح حالة العين بالجسد كله قائلاً «إن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيّراً» (مت ٦: ٢٢)، أوضح لنا من أين ينبغي للراعي أو الخادم أن يبدأ جهاده مع نفسه و يلزم طهارته حرصاً على طهارة الخدمة. فالعين إما تنصبغ بدم المسيح فتغتسل وتتطهر وتتقدس فيشع منها نور المسيح، وحينئذ يصبح العقل والجسد جميعاً هيكلاً منيراً للروح القدس لا خوف منه ولا خوف عليه، وإما تنصبغ العين بالشهوة فيصبح الجسد منقاداً للشيطان لا في شهوات نجسة وحسب بل وفي كل خطية وطموح واستهزاء وصخب و يصبح خطراً في كل وقت وعلى كلِّ بيت! و يصبح للكاهن وللخادم قدرة أن يسلب الأجواء رزانتها ويحط من مستوى العفة كلما نظر وكلما ضحك...

الكاهن الذي جرح عفة عينيه لا يملك ولا يستطيع أن يكون رقيباً على قطيعه، تتغامز عليه غنماته وتتعاهد التقيات منهن أن يقمن بالرقابة عليه والصلاة والصوم من أجله!!

آه، ياحسرة على الراعي الذي فقد عفته، ألا يكون قد فقد وظيفته؟
خطايا كل الناس تتبعهم، أما خطايا الكاهن والخادم فتتقدمه.
فجسامة الخطية تتعاظم بقدر جسامة الخدمة، ورائحة النجاسة لا تخفيها رائحة البخور والعطور.
وعين الزاني مرسوم عليها الضحية تحكي مأساة دينونة رهيبة آتية!!!

ـــ «**عظ العجائز كأمهات** والحدثات **كأخوات بكل طهارة**» (١تي ٥: ١)
ـــ «**احفظ نفسك طاهراً**» (١تي ٥: ٢٢)

١٢ ـ عثرة العلم :

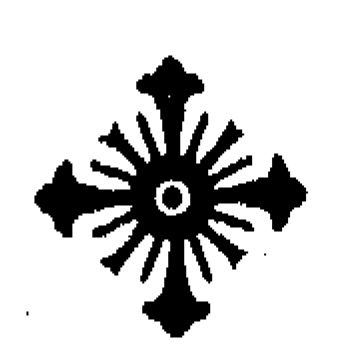
ليس عيباً على الكاهن أو الخادم أن يكون غير ملم بأصول العلوم الطبيعية من طب وهندسة وفلك ، ولو أن مدرسة الإسكندرية اللاهوتية كانت تعتني أيضاً بهذه العلوم قديماً ، ولكن عار كل العار على الكاهن أو الخادم أن يكون جاهلاً بعلوم الكنيسة . فكيف يوصّل رسالة الإيمان والعقيدة السليمة بغيرة وعزيمة وإخلاص وهو لم يدرس تاريخ الكنيسة ، ولم يتعرف على نضالها الطويل المضني للحفاظ على سلامة العقيدة الإيمانية ضد التعاليم المضلة والخاطئة ؟

فلو عرفنا أن **كل كلمة وردت في قانون الإيمان تحمل ذكرى جهاد وعرق ودم وأسماء شهداء ومعترفين ومعارك إيمانية دامت سنين وقرون** ، لاستطعنا أن ندرك أن قانون الإيمان مرتبط بتاريخ الكنيسة وأن لا غنى إطلاقاً للإيمان عن الدراسة والسهر والتحصيل !!

وكذلك **شرح الكتاب المقدس فهو بالتالي مرتبط بالعقيدة** و يتوقف على نوع المدرسة الفكرية التي يتثقف بها الكارز يومياً . فإذا لم يبن الكاهن أو الخادم معرفته وفهمه كل يوم على دراسة دائمة للأصول الآبائية السليمة و يكون أساسه اللاهوتي راسخاً على دقائق العقيدة ، يتصحح به و ينمو كل يوم ، فهو لن يستطيع أن يتلمذ شعبه للحق ولن يبني جيلاً على الإيمان والعقيدة السليمة .

إهمال الكاهن والكارز للدراسات الآبائية أو جهله بها كفيل على مدى الزمن بتكوين فاصل كبير وخطير يفصل الرعية عن تراث الكنيسة الفكري التقليدي ، فيشب الجيل غير مستسيغ لترتيبات الكنيسة وتقليدها ، كثير النقد لها بسبب جهله بأصولها الروحية .

ــ « اعكف على القراءة ... لاحظ نفسك والتعليم وداوم على ذلك ، لأنك إذا فعلت هذا تخلّص نفسك والذين يسمعونك أيضاً » (١ تى ٤ : ١٣ و١٦) .



١٣ ــ عثرة عدم اتساع القلب وطول الأناة :

طول الأناة التي يطلبها بولس الرسول هنا للخادم ، هي طول الروح أو طول التنَفس وكأن الخادم يجري في ميدان طويل ، **وهي صفة لا يمكن أن يحصل عليها الكاهن أو الخادم إلا إذا اعتبر نفسه يركض كمسخَّر لخدمة أولاد سيده ، لا يملك أن يمتنع عن خدمتهم لأي سبب من الأسباب** . هذا يحدث عندما يتنازل الكاهن عن إحساسه بذاته وإحساسه بحريته الشخصية في الخدمة ، و يتيقن أنه يعمل تحت سلطان سيده المسيح ، وحينئذ يبتدىء **يحصل على طول الروح تحت اضطرار الخدمة و يتأنى على الخطاة والمستهترين والمسيئين كمكلَّف ومأمور بذلك** ، ولا يقطع الأمل قط من إنسان ما حتى إلى لحظة الموت . لأن ذلك معناه قطع الأمل من نفسه أيضاً . وهكذا يظل يشعر أنه طالما الوقت يُدعى الوقت ، فباب التوبة مفتوح ، وإكليل الخلاص قائم ومستعد حتى لأشر الخطاة ...

أما إذا فقد الكاهن أو الخادم طول أناته ، فمعناه أنه ارتد إلى ذاته وتمسك بسلطان نفسه طارحاً عنه عبودية الخدمة الشريفة التي تحت سلطان السيد المسيح . فيبدأ يتصارع مع الخطاة لا كأولاد لسيده المسيح بل كعبيد له ، حيث لا ينتقم من عصيانهم لطاعة المسيح بل ينتقم من عصيانهم لكبرياءه المجروحة . فتتحوَّل الخدمة الروحية إلى نقمة ذاتية ، والبذل يتحول إلى تبذُّل ، والمسكنة بالروح اللائقة بخدام الصليب تتحول إلى تهديد و وعيد .

وليس الكاهن الذي ينزوي و يترك الخدمة بسبب ضيق نفسه من خطايا المخدومين واستهتارهم بأقل خطراً من الذي يستبد بهم و ينتقم لكرامته منهم ، والذي يتخلى عن الرعية إنما هو بمثابة من يسلمها للشيطان .

لذلك فلا غنى قط عن طول الأناة ، ولا سبيل إلى طول الأناة إلا بقبول الخدمة كسُخرة روحانية لا نملك الإستعفاء منها ، ولا نملك السيادة عليها !!

✽

١٤ ــ عثرة انعدام اللطف :

يرى بولس الرسول أن قمة لطف الله معنا إنما تتركز لا في خلاصنا من الخطيئة بسفك دم إبنه ، بل في تماديه فوق ذلك بمنحنا أن نجلس معه في السماويات . لأن الصفح والغفران إنما يقعان تحت باب الرحمة ، ولكن الجلوس معه في السماء فهذا هو عين اللطف الفائق !! « أقامنا معه **وأجلسنا معه** في السماويات في المسيح يسوع **ليُظهر في الدهور الآتية غنى نعمته الفائق باللطف** علينا في المسيح يسوع » (أف ٢ : ٦و٧) .

والمسيح أيضاً بهذا المعنى كان لطيفاً غاية اللطف لأنه لم يكتف برسالة الصليب والآلام وحسب ، بل كان **يجلس مع** الخطاة والفقراء والمساكين و يأكل معهم !! فهو بذلك حدد لنا معنى من معاني الخدمة غاية في الأهمية ، لا تقل عن الصليب في حد ذاته . **فملاطفة نفوس الخطاة والمساكين والمرضى جزء لا يتجزأ من منهج الخلاص** ، وأساس نبني عليه الإيمان بشخص المسيح . **فلطف المسيح على الخطاة يستحيل أن ننقل صورته لهم إلا بلطفنا عليهم** ، كذلك لطف المسيح علينا إن لم نمنحه نحن أيضاً للآخرين يتوقف منا و ينحصر عنا .

على أنه يستحيل أن يوهب لكاهن أو خادم نصيب فى الجلوس مع المسيح في ملكوته وهو لم يعتنِ هنا أن يجلس على مائدة الفقير أو يدعو المساكين والبؤساء للجلوس معه . لذلك نجد المسيح يربط ربطاً قوياً مباشراً بين زيارتنا للمرضى والمسجونين وملاطفتهم ، و بين استقباله لنا في ملكوته على نفس المستوى .

فإذا خلت خدمة الكاهن أو الخادم من أعمال اللطف والإشفاق والحنو الصادق على الخطاة والمساكين والبؤساء ، تكون قد خلت من أجمل ملامح صورة المسيح نفسه !!

١٥ ــ عثرة الرياء في المحبة :

الخدمة مهما بلغت قوتها وغيرتها وفعاليتها ، إذا خلت دوافعها من عنصر المحبة الصادقة نحو المخدومين ، فإنها تفقد معناها وجوهرها الإلهي ، فبحسب تقرير بولس الرسول في رسالته الأولى إلى كورنثوس نجد أنه ولو أُعطي الخادم التكلم لا بألسنة الناس فقط بل وحتى بألسنة الملائكة وكانت خدمته خالية من المحبة الصادقة لمن

يخدمهم ، فإن خدمته لا تتعدى في منفعتها رنين الأجراس الكبيرة في أعلى برج الكنيسة أو ضرب الدفوف في أيدي المرنمين أمام الهيكل ، **شيئاً يسمع و يذهب مع الريح !** ...

كما أنه لو أُعطي للخادم كل النبوة وكشف الأسرار وقوة إيمان مقتدر حتى على نقل الجبال ، وكان الخادم فاقداً لعنصر المحبة الصادقة نحو الذين يخدمهم و يتنبأ لهم و يعلمهم ، فإن خدمته لا تعود تساوي شيئاً . بل ولو أُعطي للخادم من الغيرة ما يكفي لكي يهب الذين يخدمهم كل أمواله و يبذل جسده من أجلهم حتى يحترق ، وكانت خدمته لهم خالية من المحبة الصادقة ، فهو لن ينتفع من خدمته شيئاً !! ...

وهكذا يتضح لنا جداً أن **عنصر المحبة الصادقة نحو المخدومين ، هو روح الخدمة** الأساسي وهو قوتها ومصدر حرارتها الذي منه يستمد الخادم نشاطه وعلى أساسه يكافأ .

على أن **أي رياء في هذه المحبة نحو المخدومين كفيل بأن يطوّح بالخدمة كلها ويجعلها بلا ثمر** و بلا مكافأة ، لأن إهانة المحبة إهانة للخدمة .

فالذي ينبغي أن ننتبه له غاية الإنتباه هو أن الخدمة الروحية ليست واجباً وحسب ولا مجرد رسالة ولا مهمة رسمية ، ولكنها **واجب محبة ، ورسالة محبة ، ومهمة محبة ، وسُخرة محبة** ، لم نقبلها إلا بسبب المحبة التي أحبنا بها المسيح أولاً فأسرنا واستعبدنا للطف محبته !! ... **فنحن نخدم الآخرين لأننا أسرى محبة المسيح** ، وقد استعبدتنا **محبته لنخدم بها وتخدم بنا ، ونحن رضينا بهذه العبودية الرابحة فاستعبدنا أنفسنا لخدمة الآخرين** كرامة لحبه . « **فإننا لسنا نكرز بأنفسنا بل بيسوع المسيح رباً ، ولكن بأنفسنا عبيداً لكم من أجل يسوع** » (٢ كو٤ : ٥).

أما أسرى المحبة الذين استعبدوا أنفسهم لخدمة الآخرين فلن يهمهم على الإطلاق أن ينالوا حباً من الآخرين بالقدر الذي يحبونهم به أو لا ينالوا ، لأن **المحبة الإلهية** المنسكبة **في قلوبهم من نحو المخدومين تفيض عليهم من فوق ولا تستمد حرارتها من الناس الذين يخدمونهم ولا من ظروف خدمتهم** ، وفي ذلك يقطع بولس الرسول بكل يقين وارتياح قائلاً : « **وأما أنا فبكل سرور أُنفِق وأُنفَق لأجل أنفسكم ، وإن** كنت كلما أحبكم أكثر أُحَبُّ أقل ، **فليكن** » (٢ كو١٢ : ١٥و١٦).

١٦ ـــ عثرة الكلام المنافي للحق :

الكاهن أو الكارز لا ينطق كلاماً من نفسه بل يتكلم بما يقوله الله في قلبه حقاً ، وما يسمعه و يعرفه منه بيقين في مخدعه وصلاته ، لا عن ادعاء وتزييف كما يحاول بعض الخدام أن يقلدوا كلام أولاد الله كالأنبياء الكذبة ...

هذه حقيقة لا تحتاج إلى برهان ، فكل من يرسله الله ليتكلم باسم المسيح فهو يتكلم بفم المسيح ، ويخدم بقوة المسيح و يفكر بفكر المسيح ! ...

ليس شيء ما يُدعي حقاً في ذاته ، لا قول ولا فكر ولا عمل ، ولكن الحق هو الله في ذاته ، وكل ما يصدر عن الله أو من الله فهو حق بالضرورة طالما هو كائن في الله غير منفصل عنه ، لذلك فالمسيح هو الحق الكامل لأنه كلمة الله أو هو الله المستعلن لنا قولاً وفكراً وعملاً . فكل من كان في المسيح يسوع يعيش و يفكر و يتكلم به ، فهو بالحق يعيش و بالحق يفكر و بالحق يتكلم ، كأنه واقف أمام الله يكلم الله . هذا يوضحه بولس الرسول بيقين قائلاً : « **لأننا لسنا كالكثيرين غاشين كلمة الله** ، لكن كما من إخلاص بل كما **من الله نتكلم أمام الله** في المسيح » (٢ كو٢ : ١٧)

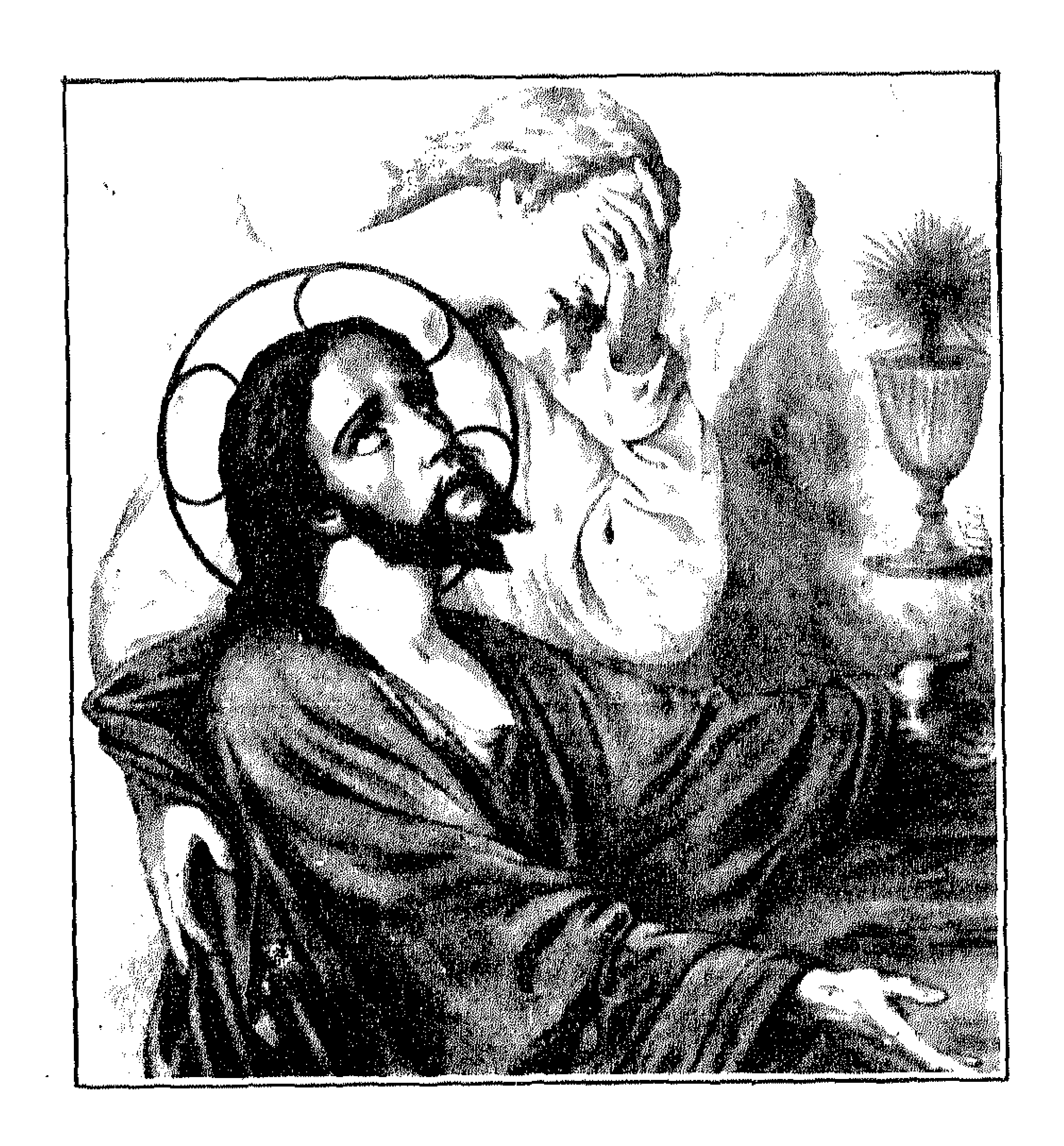
فالخادم الذي لا يتكلم بالحق روحياً أو يتحاشى أن يشهد للحق وهو يعرفه ، هو بالحقيقة لا يخدم المسيح ! ربما يكون يخدم نفسه ، أو ربما يكون يخدم آخر، بل وربما يكون يخدم الشيطان دون أن يدري ... **هذه ليست عثرة في الخدمة فحسب بل هي خدمة العثرة ذاتها !!** هنا تحوُّل خطير من معسكر النور إلى معسكر الظلمة ...

قد يتوهم الخادم أن قول الحقيقة أو الشهادة للحق قد يضر بمصلحة الخدمة ، هذا وهمٌ وقصر نُظر. فالتعليم بالحق لا يمكن أن يُعثر إلا غير المحبين للحق ، غير الثابتين في الله . فالمسيح تكلم بالحق وشهد للحق ولم يَعثر فيه إلا المرفوضون !

ليس من الأمور السهلة أن يتكلم الخادم بالحق ، لأن ثمن النطق بالحق ربما قد يصل إلى الموت . ولكن ليس الخادم في ذلك مختاراً ، لأنه إذا لم ينطق بالحق فإنه يُحسب ميتاً من الآن حقاً و يقيناً !! ...

والكاهن أو الخادم ينطق بالحق لأنه يشعر أنه واقف أمام الله يتكلم باسم الله ، فهو مقيد لا يستطيع أن ينطق إلا الحق كما يسمعه و يراه .

ـ «إن كان حقاً أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله فاحكموا، لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا» (أع ٤: ١٩و٢٠)



الفصل الثالث
الضرائب المستحقة على الخادم

للخدمة مجد، وللخدمة كرامة ... فإسمها هنا على الأرض لدى الأتقياء وعشاق الإنجيل شيء محبوب ولذيذ يسلب القلب و يستهوي الإرادة .

فخادم الإنجيل سواء بز يه الرسمي الملائكي ، أو بشكله العلماني البسيط يتحرك بيننا كرسول رب الجنود تفوح منه رائحة المسيح أينما حل ، كرامته تفوق كل كرامة على الأرض فتيجان الملوك تنحني وتخضع وتسجد تحت اليد الحاملة للصليب . والإنجيل يحبذ هذه الكرامة و يطالبنا بها « أما الشيوخ (الكهنة) المدبرون حسناً فليُحسبوا أهلاً لكرامة مضاعفة **ولا سيا الذين يتعبون في الكلمة والتعليم** » (١ تى ٥ : ١٧) . أما في السماء فتأخذ رتبة خدام المسيح أوج كرامتها ومجدها الفائق في ملكوت الله : « أنتم الذين ثبتُّم معي في تجاربي وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً » (لو٢٢ : ٢٨و٢٩) .

ولكن ليس أحد ينال هذه الكرامة المضاعفة مجاناً ، فإزاء المجد الذي ينتظر الخادم المجاهد الأمين ينبغي أن يدفع ضرائب باهظة في شكلها ومظهرها ، فالعالم يفرض عقوبات وجزاءات وتأديبات مميتة على الذين يتحدُّونه و ينكرون أمجاده الكاذبة و يستهينون بشهواته ولهوه ومسراته الجسدية والنفسانية . أما خدام البر والكارزون بالإنجيل فتُفرض عليهم ضرائب أثقل وأشد بسبب تزعمهم في فضح أكاذيب رئيس هذا العالم ، وإثبات بطلان شهواته ومسراته وتسلياته ، و بسبب اجترائهم على كشف خدعة الموت المندسة في صميم الخطيئة التي هي رأس مال الشيطان ، ولمداومتهم على تحذير الناس من الحرمان الأبدي الذي ينتظرهم من جهة الحياة مع الله بسبب مجاراتهم لآراء الأشرار.

فبقدرما يعمل الخادم الأمين في تخليص الناس من الهلاك المنصوب أمامهم

وإفساد خطط الشيطان، بقدرما ينتقم منه رئيس هذا العالم.

لذلك فضريبة المسيحي الذي ينجو بنفسه نوع، وضريبة الذي يجول كل يوم يبحث عن السائرين في طريق الموت والهلاك الأبدي و يردهم إلى حضن الله نوع آخر. لذلك إذا أردنا أن نقارن خدمة بخدمة أو نميز بين خادم أمين وخادم أمين آخر، فلا وسيلة لنا لمعرفة مقياس نقيس به قامات الخدمة إلا بانتباهنا لنوع الضرائب التي يفرضها العالم على الخادم الأمين. فثقل الضريبة يكشف عن مدى نشاط الخادم وخطورته في نظر الشيطان، وهذا المبدأ نجده واضحاً في قول بولس الرسول: «أَهُمْ خدام المسيح أقول كمختل العقل فأنا أفضل: في الأتعاب أكثر في الضربات أوفر، في السجون أكثر» (٢ كو١١: ٢٣).

وضرائب الخدمة شخصية ونوعية. فالشخصية هي التي ينتخبها الشيطان لتصيب الخادم في شخصه، كمحاولة لتعطيل الخدمة كلها جملة واحدة، كأن يصاب بمرض مؤلم عسير الشفاء، كالذي حدث لبولس الرسول. «ولئلا أرتفع بفرط الإعلانات أُعطيت شوكة في الجسد ملاك الشيطان ليلطمني لئلا أرتفع» (٢ كو١٢: ٧).

أما الضرائب النوعية التي يتحتم على الخادم أن يكون مستعداً لدفعها فهي تأتي من ثلاثة مصادر:

المصدر الأول: الإثارة التي يفتعلها الشيطان في نفوس الناس من كل صنف لمقاومة الخدمة، فهو يستخدم الرؤساء والزملاء والأصدقاء والأعداء على حد سواء، فيثير **الأحقاد والحسد والبغضة والوشاية والوقيعة، إما سافرة كحرب علنية وإما في صورة نقد وافتراء لتشويه عمل الخادم والنيل من سمعته أو إيمانه أو طهارته أو تقواه.**

وهنا يواجه الخادم حرباً مُرّة خبيثة ذات أسلحة شيطانية مهلكة يستحيل عليه أن يخوضها بامكانياته الشخصية، بل إن مجرد الإنتباه الفكري أو التركيز الوجداني في هذه المقاومات كفيل أن يفقد الخادم هدوءه وسلامه، و بالتالي يوقعه في القلق والحزن والإضطراب، وفي النهاية تتعطل الخدمة الإيجابية تماماً إذ تتحول مجهودات الخادم إلى

صراع نفساني يدور كله حول الذات وكرامتها ...

وهنا ينبهنا بولس الرسول إلى السلاح الفعال الذي ينبغي للخادم أن يتمرن عليه لمثل هذه الحروب: « بقوة الله، بسلاح البر لليمين ولليسار» (٢كو٦: ٧)، **فاليمين بالنسبة لسلاح البر هو المناداة بالكلمة لتبكيت الخطاة وتعزية التائبين، أما اليسار بالنسبة لسلاح البر فهو انتخاب الأقوال اللطيفة اللينة لإسكات ألسنة الأعداء وقطع خط الرجعة على المفترين والمنتقدين**: « نُشتم فنبارك، نُضطهد فنحتمل، يُفترى علينا فنعظ» (١كو٤: ١٢و١٣). **وكل ذلك على أساس أننا قبلنا الإهانة والإضطهاد والإفتراء قبولاً كاملاً بسرور كضريبة واجبة الدفع في الحال**: « أنتم مكرَّمون أما نحن فبلا كرامة» (١كو٤: ١٠) « كمضلِّين ونحن صادقون» (٢كو٦: ٨).

المصدر الثاني: الإثارة التي يفتعلها الشيطان في فكر الخادم وفي نفسه وجسده محاولاً إفساد اتزان رأيه وعمله وسلوكه عن طريق **إثارة غرائزه الطبيعية من شهوة وغضب، وحب وبغضة، وأمل ويأس، وطموح وانحصار، وذلك ليشككه في صلاحيته أو لياقته للخدمة أو ليشككه في دعوته كلها جملة واحدة، وذلك بأن يضع أمام عينيه باستمرار عثراته وضعفاته ويثقِّل على ضميره حتى يبلغ به حافة اليأس.**

هنا أيضاً ينبهنا بولس الرسول إلى ضرورة استخدام سلاح البر لليسار، ليقطع الخادم بكلمة الوعد كل وساوس الشيطان وهياجه داخل الجسد الترابي: «فإننا لسنا نكرز بأنفسنا... ولكن لنا هذا الكنز (الكرازة بالمسيح) في أوان خزفية (الجسد) ليكون فضل القوة لله لا منا، مكتئبين في كل شيء (مضغوطين من كل جهة، من الخارج إلى الداخل) لكن غير متضايقين (محصورين)، متحيرين لكن غير يائسين، مطروحين لكن غير هالكين، حاملين (بسبب الغرائز والإنفعالات الميتة) **في الجسد** كل حين إماتة يسوع لكي تُظهر حياة يسوع أيضاً **في جسدنا**، لأننا نحن الأحياء نُسلَّم (بواسطة الشيطان) دائماً للموت (كل النهار) من أجل يسوع لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في **جسدنا المائت** (أو الذي مات بسبب الخطيئة)» (٢كو٤: ٥، ٧-١١).

وكل ذلك على أساس أننا قبلنا كل تحديات الشيطان ، صابرين ، محتملين كل تعاذيبه التي يلقي بثقلها على عقلنا وعواطفنا وغرائزنا وكل حواسنا ، كضريبة واجبة الدفع لحساب رب الرعية مباشرة ، متذكرين باحتراس شديد قول المسيح الذي كشف به حيلة الشيطان في هذه المجالات : « أضرب الراعي فتتبدد خراف الرعية » (مت٢٦ : ٣١) !!...

المصدر الثالث : الإثارة التي يفتعلها الشيطان في الطبيعة ليتخذ منها سلاحاً مؤلماً يحارب به الخادم أينما سار وأينما حل ، فيثير العواصف ويهيج البحار و يثير الوحوش والحشرات والميكروبات والأخطار والحركات المريبة في الظلام **ليفزع قلب الخادم و يرعبه حتى تكل عزيمته و يتشكك في معونة الله ورحمته .** وهذه الحروب كانت من أبرز المحاربات الشيطانية التي واجهها بولس الرسول وغيره من الآباء والخدام في كل مكان وزمان « ثلاث مرات انكسرت بي السفينة ليلة ونهاراً قضيت في العمق ... بأخطار سيول ، بأخطار في المدينة ، بأخطار في البرية ، بأخطار في البحر... في جوع وعطش ، في برد وعري ... » (٢ كو١١ : ٢٥-٢٧) .

هذه كلها تحديات سافرة للشيطان لا يتورع أن يجمعها كلها مرة واحدة في أقل وقت ، وخصوصاً في بدء حياة الخادم ، حتى ينهي عليه قبل أن يتشدد و يتعرف على حيله وتفاهته « لأننا لا نجهل حيله » (٢ كو٢ : ١١) !!

فالخادم الحكيم يضع نصب عينيه منذ أول كلمة وأول خطوة أنه قادم على دفع ضرائب من هذا النوع باهظة و بلا عدد ، ولكنها تهون كلها إزاء المعونات الهائلة التي يستمدها من الروح القدس أثناءها و بعدها !!

وهذا كله يضع أمامنا خريطة روحانية دقيقة ، لو فحصنا على ضوئها خدمتنا بأمانة وصدق يمكننا أن نحدد موقعنا من الخدمة .

فقبل كل شيء نسأل : هل قد تحددت علينا الضريبة المستحقة على الخادم الأمين أم لا ؟ وما هو نوع الضريبة ، هل هو يتعلق بصميم التعليم والمبادىء أو يتعلق بالنفس في الداخل الذي يعتبر أثقل الضرائب وأخطرها وأفدحها ثمناً ؟... أم يتعلق بالنشاط

الخارجي المتسع .

على أننا غير مخيَّرين جميعاً من جهة قبول هذه الضرائب ، إذ يتحتم دفعها ونحن صاغرون ، أولاً بأول ، كما تُفرض علينا تماماً ، سواء دفعة واحدة أو على أقساط طويلة الأجل ، دون أن نهتز أو نتذمر ، يدنا ممسكة بالمحراث في إستماتة ووجهنا مصوَّب نحو السماء . لأن أي محاولة للإفلات من الضريبة يضعنا في موضع الهاربين من الطريق الضيق المختلسين للمجد السماوي !!

علماً بأن مظهر الخادم وهو منحنٍ أمام عنف الأشرار وطغيان السلطان يدفع الضريبة المستحقة عليه أولاً بأول ، بصبر و بدون شكوى أو تذمر ، يُسجَّل عليه في نظر العالم كحالة « ضعف » ! ولكن مرحباً مرحباً بهذا الضعف الذي من خلاله يتسجل لنا نصيبنا السماوي في المجد « من جهة هذا (إختطافه إلى الفردوس) أفتخر . ولكن من جهة نفسي لا أفتخر إلا بضعفاتي » (٢ كو١٢ : ٥) . وما أروع هذا الضعف الضريبي الذي دفعه المسيح قبلنا دون أن تفلت يده من على المحراث حتى الموت : « لأنه صُلب من ضعف » (٢ كو١٣ : ٤) ، حتى أن بولس الرسول سماه « ضعف الله » (١ كو١ : ٢٥) !!!



الفصل الرابع

أفراح الخادم ...

« فرح الرب هو قوتكم »
(نح٨: ١٠)

١ - فرح صديق العريس :

« أما صديق العريس الذي يقف و يسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس . إذاً فرحي هذا قد كمل » (يو٣: ٢٩) .

في الأفراح الشعبية حينما يزفون العريس في المدينة يخرج أصدقاء العريس و يتقدمونه في الطريق راكبين الخيول أو الدراجات البخارية في موكب مبهج جداً بالزمر وأصوات النفير، ووجوههم تطفح بالبِشر والفرح .

يوحنا المعمدان تعيَّن من السماء ليكون أول من يتقدم العريس ليعد الطريق في بطن الزمان ، بصوت وصراخ . وحينما أكمل الشوط ظهر العريس معلناً اكتمال الزمان و بدء السنة المقبولة ، فكان هذا الظهور أسعد مراحل جهاد يوحنا ، وحينما بلغ يوحنا صوت العريس قال : « إذا فرحي هذا قد كمُل » ...

ولكن بظهور المسيح أُعلن الباب والطريق والعروس معاً ، العريس الآن مع العروس في خباءة الكنيسة . وسر الفرح قد ملأ أهل البيت ، **الكاهن والخادم في العهد الجديد هو ليس صديق العريس الفرحان لصوت العريس وحسب كأنه يعد الطريق أمامه حتى يبلغ بيت العروس ثم ينسحب ، بل إن الخادم في العهد الجديد هو أيضاً موضوع فرح العريس نفسه لأنه ممثل عن العروس وجزء منها بآن واحد .**

الكاهن والخادم **شريك** في فرح العريس بعروسه !! الخادم **يفرح للعريس ويفرح مع العريس !!**

خدمة العريس كلها فرح ، كلها بهجة ، كلها سرور ، وبالأكثر جداً حينما يكون الخدام هم أنفسهم شركاء العرس مع العريس ومع العروس ! ...

خدام العريس خدام إكليل وهم أصحابه ، لا يحزنون ولا يكتئبون قط ، لئلا يهينوا العريس . العريس حاضر معنا في الكنيسة غير مرفوع من بيننا أبداً « ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر » (مت٢٨ : ٢٠) .

العريس يطل على الكنيسة بصورة دائمة حقيقية وسرية « عندكم الآن حزن (ساعة الصلب) ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم » (يو١٦ : ٢٢) . وفعلاً ظهر المسيح بعد القيامة ورآه **التلاميذ ففرحوا فرحاً كان هو هو جوهر الإنجيل** كله ، لأنهم انطلقوا في فرحة الرؤيا يبشرون بالبشارة المفرحة ، أي يكرزون بالمسيح العريس الحي المنظور !!

ويعود بطرس يطمئن أعيننا الطامحة لمثل هذه الرؤيا الحسية بقوله : « الذي وإن كنتم لا ترونه الآن ، لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا يُنطق به ومجيد » (١بط ١ : ٨) .

العهد القديم كله كان ينتظر هذه البشارة المفرحة بشارة الخلاص والرجاء ، فطوّب خدامها : « ما أحلى أقدام المبشرين بالسلام المبشرين بالخيرات » (رو١٠ : ١٥ ، أش٥٢ : ٧) .

إن قوة الكاهن في كرازته وقوة الخادم في تعليمه هي فرحة بالعريس ، لأن الفرح بالله هو الإنجيل ، والإنجيل هو الفرح بالله ...

٢ ــ الفرح بتوبة الخطاة :

من الأمور المدهشة والمحيرة للعقل ما عرفناه عن العلاقة العاطفية التي تربط أرواح القديسين والملائكة في السماء بالخطاة الذين يتوبون على الأرض : « هكذا يكون فرح في السماء بخاطيء واحد يتوب » (لو١٥ : ٧) .

إنه فرح روحاني فائق للعقل ، فرح المصير الواحد الأبدي وبهجة الشركة في الحياة مع المسيح !

آه من هذا المسيح العجيب الذي ربط السمائيين بالأرضيين ، ووحّد وصالح الروح مع الجسد ، ورفع العداوة ، وجعل الإثنين واحداً ...

ولكن الذي يدهشني ويحيرني جداً ، **كيف لا يستمتع الكاهن والخادم بهذا الفرح ويشترك فيه ويعيش به ويتغذى عليه « إن فرحي هو فرح جميعكم » (٢ كو٢ : ٣) ، أليس الكاهن أو الخادم هو الذي يسوق الخطاة إلى التوبة ويفتح أمامهم باب السماء ، أي أنه هو الذي يتسبب في فرح السماء كلها ؟؟**

إنها مشكلة ومعضلة ، عسيرة الحل أمامي ، عندما أرى كاهناً حزيناً يائساً يمارس خدمته بالغم ، أو خادماً معبساً يشرح الخلاص للخطاة وهو مكتئب ؟؟

إن موضوع فرح السماء كلها ألا يصلح أن يكون موضوعاً لفرحنا ؟؟ هل يمكن أن يزف الأهل العروسة لعريسها وهم ينوحون ويلطمون ؟؟

هل يمكن أن يغير الإنجيل صفته أو إسمه ؟ ، أليس هو البشارة المفرحة ؟ ، مفرحة للخاطيء والبار ، للخادم والمخدوم ؟ أليست هي مفرحة للسماء كلها ؟

ـــ « وهم غلبوه بدم الخروف وبكلمة شهادتهم ولم يحبوا حياتهم حتى الموت . **من أجل هذا افرحي أيتها السموات والساكنون فيها** » (رؤ١٢ : ١١ ، ١٢) .

٣ ـــ الفرح بالقوة المستمدة من الكلمة :

يمكن تعريف الخدمة بصورة مبدئية أنها قيادة الخطاة إلى التوبة ، ولكن حقيقة الخدمة وغايتها العظمى هي توصيل الفرح بالمسيح إلى قلوب الناس . **فإذا لم يبلغ الخاطيء إلى الفرح بالمسيح الذي يغنيه عن كل شيء في العالم ، فهذا يكشف عن قصور خطير في مفهوم الخدمة وفي إمكانية الخادم ...**

كـل رأسـمـال الخـادم يتـركـز في إمكـانيته الحصول على قوة متجددة من القراءة والـتـأمـل ، وعـلامـة الحـصـول على هذه القوة هو الفرح الذي ينسكب في القلب بغزارة وفيض عند القراءة واكتشاف صوت الله من خلال الآيات والوصايا ...

الـكاهن والخادم المتهلل الفرحان الذي تجري الكلمة بمعانيها الحية على لسانه بـسهـولـة ولـذة وسـرور، هـو صـورة حـيـة صـادقـة وأمـيـنـة للإنجيل أي البشارة المفرحة !...

٤ ــ الفرح بازدياد الآخرين :

« ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص » (يو٣: ٣٠).

إن عـمـل الخـادم الأسـاسي أو صفته الأولى هي أنه يعطي و يعطي باستمرار و بلا مـلل أو بـخـل ، و بـلا قيد أو شرط . يعطي للضعيف ليزداد قوة ، وللقوي ليزداد ثباتاً . يـعـطـي للصديق والغريب والعدو، يعطي بلا محاباة ولا تمييز، من علمه وخبرته وماله وروحه .

فـإذا كـان عـطـاء الـكاهن أو الخادم عطاء من الله صحيحاً ومخلصاً ، تكون عـلامته أن الخادم يفرح بازدياد الآخرين حتى ولو كان على أساس نقصانه هو!! والمـسيـح غـبـط الـعـطـاء والحب الصالح عندما يكون بلا نية لاسترداد الثمن أو الجزاء المساوي !

الـكـاهـن أو الخـادم الذي يعطي باحتراس وشحٍّ خوفاً من تسرب معلوماته أو خوفاً من تـفـوُّق الآخـريـن عـلـيـه ، يـستحيل أن يفرح بالعطاء و يستحيل أن يفرح بازدياد الآخرين ؛ هو تاجر معلومات وعلم أكثر منه خادم خلاص ومجد .

ــ « وأمـا أنـا فـبكل سرور أُنفِق وأُنفَق لأجل أنفسكم ــ حتى ــ وإن كنت كلما أحبكم أكثر أُحَبُّ أقل ، فليكن » (٢ كو١٢: ١٥، ١٦) .

*

٥ ــ الفرح بالدعوة لخدمة يسوع المسيح :

حينما يؤكد بولس الرسول بقوله : « صادقة هي الكلمة أنه إن ابتغى أحد الأسقفية (أي تدبير الكنيسة) فيشتهي عملاً صالحاً » (١تى٣ : ١) ، يريد أن يوضح أمامنا أن **الخدمة هي بحد ذاتها عمل صالح** . فاذا اشتهيناها على أساس ذلك أي أنها عمل وعمل ثم عمل ، فهذا صالح . أما إذا اشتهينا الخدمة دون أن يكون في أساس فكرنا وضميرنا أننا سنعمل الصالح أو الصلاح ، فهذه الشهوة تكون باطلة **وميتة** ...

ولكن الذي نود أن نتأمله من هذه الآية المقدسة هو أن **عمل الخدمة أو عمل التدبير في الكنيسة هو أمر شهي ، هو شيء يُحَبُّ ويُشتاق إليه من كل القلب ، لأنه متعلق بخدمة يسوع شخصياً . ويسوع نحن نحبه ، ونحبه فوق الطاقة وفوق العقل ، حتى حدود الموت تماماً ، والموت أيضاً لا يمكن أن يفصلنا عن حبه** . وهو يفرح بحبنا له ويطالبنا به ، لأننا نحن في ذلك الرابحون . والمسيح وضع علامة لبرهان صدق حبنا له ، وهي استعدادنا بفرح أن نخدمه ونرعى غنمه « أتحبني ؟ ارعَ غنمي !! » (يو٢١ : ١٦) .

فأي إنسان يُدعى لخدمة إسم المسيح سواء من نفسه بسبب شهوة حبه للمسيح ، أو بسبب إضطرار الله أو الآخرين له ورضوخه لهذا الإضطرار بسبب حبه المتأصل في قلبه من نحو المسيح ، فبمجرد أن يدخل هذا الإنسان تحت نير الخدمة بداعي هذا الحب ، فإن الله يختم على دعوته أنها صادقة وأمينة ويُدخله في سر الفرح الإلهي « أدخل إلى فرح سيدك » (متى ٢٥ : ٢٣) .

ولو تمعنّا دائماً في القيمة الروحية المتحصلة من الخدمة ومقدار المجد العائد على المسيح من كل قول وعمل يؤول إلى خلاص الناس من عبودية الشيطان ، لأدركنا في الحال أن فرح الخادم بالخدمة لا يعلو ولا ينبغي أن يعلو عليه أي فرح في هذا الزمان ، **لأن خلاص إنسان واحد يتحصل منه مجد للمسيح في السماء أفضل من ألوف تسبيحات لألوف ملائكة !!**

« فماذا ؟ غير أنه على كل وجه سواء كان بعلة أم بحق ينادىَ بالمسيح فبهذا أنا أفرح

بل سأفرح أيضاً لأني أعلم أن هذا يؤول إلى خلاص !! » (في ١ : ١٨ ، ١٩) .

٦ ـ الفرح بسر الآلام :

ليس كل من يتألم يستطيع أن يذوق الفرح المتولد من الآلام .

بل إنه يبدو لكثيرين كأنه أمر غير معقول ... لأن الألم والفرح من وجهة النظر الطبيعية نقيضان ... ولكننا نقول إنه سر !! والسر دائما يفوق الطبيعة ، نحن هنا نكرر ونتكلم عن سر الفرح في سر الألم ! ...

الكاهن أو الخادم هو أولاً وقبل كل شيء خادم لسر آلام المسيح .

لا يستطيع أحد أن يكرز بسر آلام المسيح دون أن يكون شريكاً في هذا السر : « أمين هو الله الذي به دُعيتم إلى شركة إبنه يسوع المسيح ربنا » (١ كو١ : ٩) . إن شركة حياتنا مع المسيح هي قائمة وتقوم على سر آلامه ، وسر آلامه يقوم مسبقاً على سر فرحه « الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي » (عب١٢ : ٢) . شركة الحياة بين صديقين أو بين عروس وعريس ، معناها تبادل الأحزان والأفراح وكشف أعماق أسرار القلب .

الرب لا يكشف سر آلامه إلا لأحبائه الأخصاء جداً الذين يجد فيهم راحة لقلبه ، هؤلاء يستودعهم سر آلامه لا بالكلام ولا بالمعرفة ولا بالكتابة ولا بالخطابة ، ولكن بأن يهبهم جزءً أو نصيباً مماثلاً لآلامه يتناسب مع الفرح والمجد الذي ينتظرهم : « لأنه قد وُهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضاً أن تتألموا لأجله » (في ١ : ٢٩) . وهل يمكن أي تشترك العروس في أفراح عريسها دون أن تشترك في صميم آلامه ؟ وأي صديق يحب صديقاً إن هو استعفى من الإشتراك في صميم آلام صديقه ؟

الرب يهبنا الآن شركة عملية في سر آلامه ، لأنه يستحيل بدونها أن نحصل على سر الفرح الأبدي فيه ، الذي نسبق ونتذوقه منذ الآن ؛

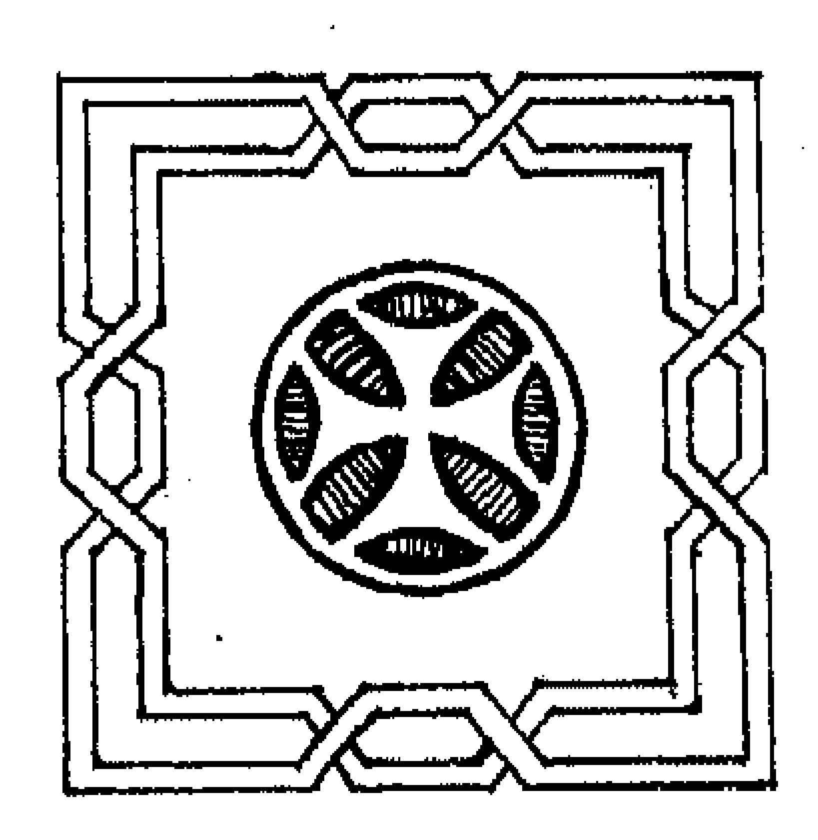
كل كاهن أو خادم يحيا في شركة أمينة مع المسيح يستحيل أن يذوق أفراح الرب

خلواً من آلامه ، ولا أن يوهب نصيباً في آلام الرب دون أن يسعد بنصيب معه في سروره .

إذا غاب الفرح عن القلب المتألم ، كان ذلك برهاناً على غياب وجه العريس . حضور المسيح يعطي للألم مذاقة أخرى ، وصورة المسيح مكللاً بالشوك وهو يلفظ النفس الأخير كفيلة أن تمزج آلامنا بفرح ما بعد الصليب .

الكاهن أو الخادم الذي توطدت له صلات المحبة الصادقة بشخص الرب ، ودخل معه في عهد عشرة صادقة ؛ لا تعود حياته يحياها لنفسه ، فكل دقائق حياته تدخل في دائرة حياة المسيح . فكما تصبح آلام المسيح كلها آلامه ، كذلك تصبح كل آلامه هي آلام المسيح ، وكأنما يكمل مع بولس الرسول كل يوم نقائص شدائد المسيح في جسده . لذلك فإن بلوغ الكاهن أو الخادم إلى يقين حياة التسليم ينقل حياته كلها برمتها من دائرة الجسد إلى دائرة الروح . وحينئذ تسمو كافة آلامه ـــ من أعظمها إلى أصغرها ، من تهديد الموت إلى أصغر مرض أو أصغر جرح ـــ إلى مستوى الذبيحة والتقدمة ـــ إلى مستوى الصليب ـــ فلا يملك حينئذ أن يقدم في آلامه إلا مزيداً من الشكر والتهليل أن حُسب أميناً على سر العريس وشريكاً لآلامه الظاهرة والباطنة .

إن آلام الكاهن والخادم تتقدس دائماً في آلام المسيح ، هنا سر الفرح ! ...



مقالات تصلح للشباب والخدام
المقالة الثامنة في

الخـــدمة

الجزء الثالث

المحتويات

الباب الأول
نحو خدمة كنسية أرثوذكسية

الفصل الأول
التربية الدينية

إننا شعب متدين محافظ ، لنا تقليد موروث صالح ، ولنا أن ننتفع وأن نفتخر بحق بهذا التراث الذي خلفه لنا آباؤنا القديسون العلماء الملهمون .

وكل من يطّلع على تعاليم الآباء (ومعظمها لم يترجم بعد) ، يدرك أهمية هذا التراث لما فيه من عمق روحي وفلسفي — و يندهش كيف لم ينتفع به أصحابه حتى الآن ...

و يؤكد العلماء أن هذه التعاليم لو عُرضت علينا عرضاً سليماً بلغتنا ، فسوف تجدد عصراً ذهبياً لمصر — لن يقل عن عصر القديسين الأوائل ، لأن الروح الشرقية العميقة والوجدان القبطي ذخيرة حية فينا لن تفنى !

أليس من المدهش والمحزن لأرواحنا جداً أننا نتغافل عن هذه الحقائق ونجري وراء المعارف الدينية الحديثة في بلاد ليس لها من العمق والتراث والتاريخ في المسيحية ما يوازي قدراً ضئيلاً مما لكنيستنا المجيدة ، بل ونتتلمذ لنظم الدين والتربية في بلاد هي أحوج ما تكون لتعاليمنا ، بل ومن أشق ما يكون لفقر شعوبها من الشاعرية الدينية والوجدان الروحي العميق ؟

إن تلك البلاد التي تحاول أن تعلمنا كيف يمكن صنع القديسين ، و بأي أسلوب تعلّم المسيحية ، تصرخ من عدم نفع برامج التعليم الديني ونظم التربية الدينية التي ابتكروها في صد التيارات التي تجتاح شبابها من إباحية ومادية وإلحادية وكل بدعة جديدة شيطانية ... !!

فمثلاً بالنسبة للشباب الأمريكي ، رغم مجهودات رؤساء الدين التي تعضدها

ملايين الدولارات وجهابذة الفكر وأحدث طرق التربية ، ينصرف الشباب هناك عن الإيمان بالله بصورة مزعجة للغاية .

لماذا ؟

لأنه مخدوم في نطاق الدين خدمة ممتازة ــ ولكن حسب البرامج العقلية والمنطق والبراهين العلمية . فعندما يصطدم بمنطق العلوم التجريبية ونتائجها الواقعية الجبارة يرى أن منطق الدين ــ كما قُدّم له ــ ضعيف ... !! فيشك .

ثم يصطدم مرة أخرى بحقائق الحياة العملية فيتكشف له اختلال موازين الرحمة والعدل في توزيع الكوارث والآلام ، خصوصاً إذا أصابه شيء منها ولم يستطع أن يعلله تعليلاً يرتضي به عقله ، فيرتد ...

وهو مظلوم حقاً لأن برامج التربية الدينية سلمت إليه سلاحاً لا يصلح لفحص الحقائق الروحية ــ أي الفحص العقلي .

كيف يواجهون الدين ...

ولكن ليست البرامج الدينية الخارجية وحدها هي التي لا تناسبنا ولكن نفس طرائقهم في التفكير وأسلوب أخذهم للحقائق الدينية تختلف عن طرائقنا وعن أسلوبنا تمام الإختلاف .

فالعقلية الغربية عقلية تحليلية ، فالغربي إذا سمع عن معجزة لا يكتفي بتصديقها بل يحاول أن يفهم لماذا عُملت ! إبل أنه يحاول أيضاً أن يعرف كيف عُملت !! وهو يواجه هذه الظاهرة الدينية على نمط طريقة العقل في مواجهة حقائق العلم . وإننا نلحظ بوضوح في جميع مؤلفاتهم ميلهم دائماً إلى التحليل ، وهم مقتدرون فعلاً في هذا المضمار ، ولعلهم أقدر من يحلل الشخصيات و يكتب تراجم حياة الناس .

وعلى هذا الأساس التحليلي توضع برامجهم التربوية ، وتشكل عقولهم وتبتكر نظم التعليم الديني عندهم .

أما في الشرق ...

فإن الشرق يفهم الله والدين بقلبه ويخضع له بشعوره ووجدانه ولا يعتمد على

البراهين العقلية كثيراً ، بل إنه لا يلجأ أيضاً للإختبار والتجريب وإنما يستخدم حاسته الروحية في تفهم الحق وفحصه وقبوله . وهو بذلك يفهم الله والدين فهماً **صحيحاً عميقاً** لأن طاقة الإحساس الروحي هي الطاقة الأصيلة الوحيدة في الإنسان المخصصة لمعرفة الله والحق... وهي أيضاً أعمق من العقل وأوسع دائرة . وأقدر على التثبت . وهي إذا آمنت مرة ولمست حقائق الله والدين ، فهيهات للعقل أو العلم أو المخترعات أو الشيطان أن يزعزعها .

لذلك يلزم أن تقوم برامجنا الدينية والتربوية أولاً على أساس وجداني روحي محض ، أما إستخدام الوسائل العلمية ، وتقديم البراهين العقلية ، فليس هو المنهج الصحيح للتربية الدينية .

وثمة ملاحظة نراها في شبابنا ، إنه يمر أحياناً بفترة من حياته تختل أمامه فيها القيم الروحية والدينية وذلك تحت ظروف كثيرة حتى يخيل لذويه ومعلميه أنه ضل الطريق نهائياً وأنه يعسر إقناعه بالدين بشتى الطرق... ولكن الواقع والمشاهد أنه بعد مدة يعود من تلقاء نفسه .

هذا بعكس شباب أوروبا وأمريكا الذي إذا خرج من حظيرة الدين يكون خروجه مؤكداً ودائماً . أما سبب الخلاف فهو راجع في الواقع للفارق في طريقة قبوله للدين ، فهم يقبلونه كما قلنا بعقولهم الفاحصة بأدلة و براهين ، أما نحن فنقبله بالإحساس والوجدان ، باقتناع الروح الداخلي ، فإذا هم نبذوه فإنما ينبذونه عن اقتناع عقلي أقوى من الإقتناع العقلي الذي قبلوه به ، وحينئذ هيهات لهم الرجوع ...

أما شباب الشرق فإنه إذا نبذ عنه الدين فإنما ينبذه بعقله ، ولكن لمسات الروح التي قَبِل بها حقائق الدين من قبل تظل حية في أعماق وجدانه ، تتحكم في حرية عقله إلى أنْ تقوده يوماً إلى الرجوع إليها خاضعاً في ولاء أشد وإيمان أحر .

خلاف في المنهج :

ولكن هناك خطورة على أي حال في اقتباس الطرق العقلية للتربية الدينية ، واستخدام البراهين والمحاجاة والتحليل التي يستخدمها الغرب في تثقيف أبنائه لمواجهة التيارات الإلحادية هناك ، كي نستخدمها نحن لأبنائنا الذين يعيشون بوجدانهم الروحي الموروث ...

إن في استخدام هذه الوسائل تنشيطاً لقوى التحليل والتشكك العقلي ، وتغليباً لها على موهبة الوجدان الصالحة والكفيلة لأداء مهمة تقبُّل الروح والدين والله .

ولن تستطيع هذه البرامج مهما بلغت من الإتقان والتمشي مع وسائل علم النفس الحديثة أن تنجح يوماً في تغذية قلب الشاب الشرقي ــ لأن طبيعة الشرق في تفهُّم الله والدين لا تقوم على أساس التحليل العقلي المحض ، وإنما تقوم وتعتمد على الوجدان والروح ، كما قلنا ، و بغير طريقة التحليل بل بعكسها تماماً ، أي عن طريق التركيب والتجميع التي تكوِّن طاقة قوية جبارة للإبداع والخلق .

فمثلاً لو سمع الشرقي عن قديس بارع مقتدر بالروح ، فإنه يتقبل القصة بوجدانه و ينفعل انفعالاً روحياً ، وتنشط قوى النفس عنده للتجميع والتركيب لإبداع نموذج مماثل ، سواء في شخصه أو في أحد أولاده أو مريديه .
بعكس الغربي كما قلنا الذي ينفعل انفعالاً عقلياً تحليلياً ، فيبدأ يحلل شخصية هذا القديس ليخرج لنا كتاب ترجمة عن حياة ذلك الإنسان ...
ولهذا نجد الشرق قد امتلأ بالقديسين أما الغرب فقد اكتظ بالكتب .

عدم استقرار:

إن عدم الإستقرار في البرامج الدينية ، وسرعة إستحداث الطرق الجديدة للتربية ظاهرة ملحوظة في بلاد الغرب عامة ، وفي أمريكا التي فاقت الكل ــ ذلك لأن العلم يتنازع لديهم دائماً مع الدين ، والسبب واضح كما قلنا ، فالعقل هو الوسيلة التي يستخدمها الغربي لتفهُّم كليهما و بطرائق واحدة وأسلوب واحد تقريباً .

أما في الشرق ، فنظراً لاختلاف حاسة الدين عن وسيلة العلم ، يمكن القول بعدم وجود هذا التنازع بصورة جدية . فمهما تقدم العلم فإنه لا يزعزع الإيمان بالدين ــ لأن هذا موجود في القلب يلهم الحياة ونطاقه أبعد ما يكون عن نطاق العلم ؛ إلا إذا استثنينا بعض أفراد تلقوا العلم في الخارج أو تثقفوا بالثقافة الأجنبية فتنشطت قوى النقد العقلي والتحليل عندهم ، وحتى هؤلاء لن تجدهم جادين في تشككهم وإنكارهم ...

إذن فليس من العدل ، بل ليس من الحكمة ، أن نتبارى مع الغربيين والأمريكان على الخصوص في استخدام طرائق تربيتهم الحديثة ، كما لا يمكننا أيضاً أن نتمشى

معهم ، لأن قدرتهم في التجديد والإستحداث شديدة ، حتى أن المصري قبل أن يصل إلى شواطيء بلاده عائداً من هناك مزهواً بشهاداته وقد ملأ قلبه وزحم عقله بأحدث طرائق التربية ، أقول قبل أن يصل إلى بلاده يكون الأمر يكان قد استحدثوا طرقاً جديدة على نظريات جديدة ، وأصبحت الطرق التي في عقل القادم من هناك عتيقة غير صالحة في نظرهم .

وللأمر يكان قدرة عجيبة على نبذ القديم وقبول كل حديث بسهولة فائقة ؛ فهم قادرون فعلاً على التغيير والإستحداث وقد صار ذلك طبيعة لهم لازمة لتتمشى مع أساليب الحياة هناك ليس في الدين فقط بل في جميع نواحي المعيشة .

منهجنا في التربية ...

أما نحن فليس من الصالح أن ننبذ القديم في أمور التربية الدينية ، لا لأننا جهلة متقاعسون ، ولكن لأن الأسس الدينية التي تربينا عليها أسس صالحة مستقرة وصلت إلينا عن أجيال مستنيرة بالروح ، جلهم فلاسفة روح ، ملهمون ، كتبوا وعلّموا مُساقين بقوة الله ، وضعوا أساساً لعلمهم منهج القديس بولس الرسول : « وأنا لما أتيت إليكم أيها الإخوة أتيت ليس بسمو الكلام أو الحكمة منادياً لكم بشهادة الله ... لأني لم أعزم أن أعرف شيئاً بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوباً ... وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع بل ببرهان الروح والقوة ، لكي لا يكون إيمانكم بحكمة الناس بل بقوة الله » (١ كو٢ : ١ ــ ٥) .
بهذا المنهج صنعت كنيستنا القديسين جيلاً بعد جيل وقدمت للسماء عدداً هائلاً من الشهداء وأبطال المسيحية الخالدين ، وذلك لأن كنيستنا في حقيقتها مدرسة روحية مليئة بأساليب تربوية عملية ومبادىء روحية ثابتة موطدة ، قادرة أن تشيع في قلوبنا راحة واطمئناناً ، وكفيلة لكل من يحبها أن تملأ حياته سلاماً واستقراراً وفهماً لجميع مشاكل الحياة في كل ظرف وفي كل عصر . والذين ذاقوا حبها وعاشوا بروحها يعرفون صدق هذا الكلام ...

لذلك فنحن نحتاج لا إلى استحداث شيء فيها أو تغيير أساليب تربيتها لنا ، بل بالحري إلى تفهُّم ذلك المنهج الروحي المتقن ، والترتيب العملي القوي الذي يصبُّ الدين في النفس ليشيع في كل الحياة .

والواقع أن الطرق التربوية الجديدة لازالت لدى علماء التربية أنفسهم غير ثابتة ونتائجها أحياناً ما تكون وبيلة . ذلك لأن العلوم التي يرتشد بها المربون هناك ما زالت هي نفسها غير مستقرة ، خصوصاً علم النفس الذي يستهدف لتيارات عنيفة من التغيير، فما أشد الهدم فيه وما أسرع البناء ، وكثيراً ما يلتقط التربويون نظرية غير ممحصة من أفواه علماء النفس ويضعون عليها برامج مستحدثة للتربية ثم يثبت بعد حين خطأ النظرية ، فتكون الآثار السيئة والخسارة لا في أموال بل في نفوس وأجيال .

ثقة ...

إن القبطي حين يذهب إلى تلك البلاد يكتشف حين يقارن بين أسلوب كنيسته وطرقهم في التربية الدينية وبين روعة نظام كنيسته ، يحس على الفور بأن روحه لا تنسجم مع تلك المناهج البراقة التي تستند إلى العقل والتحليل والعلم أكثر مما تخاطب القلب والروح .

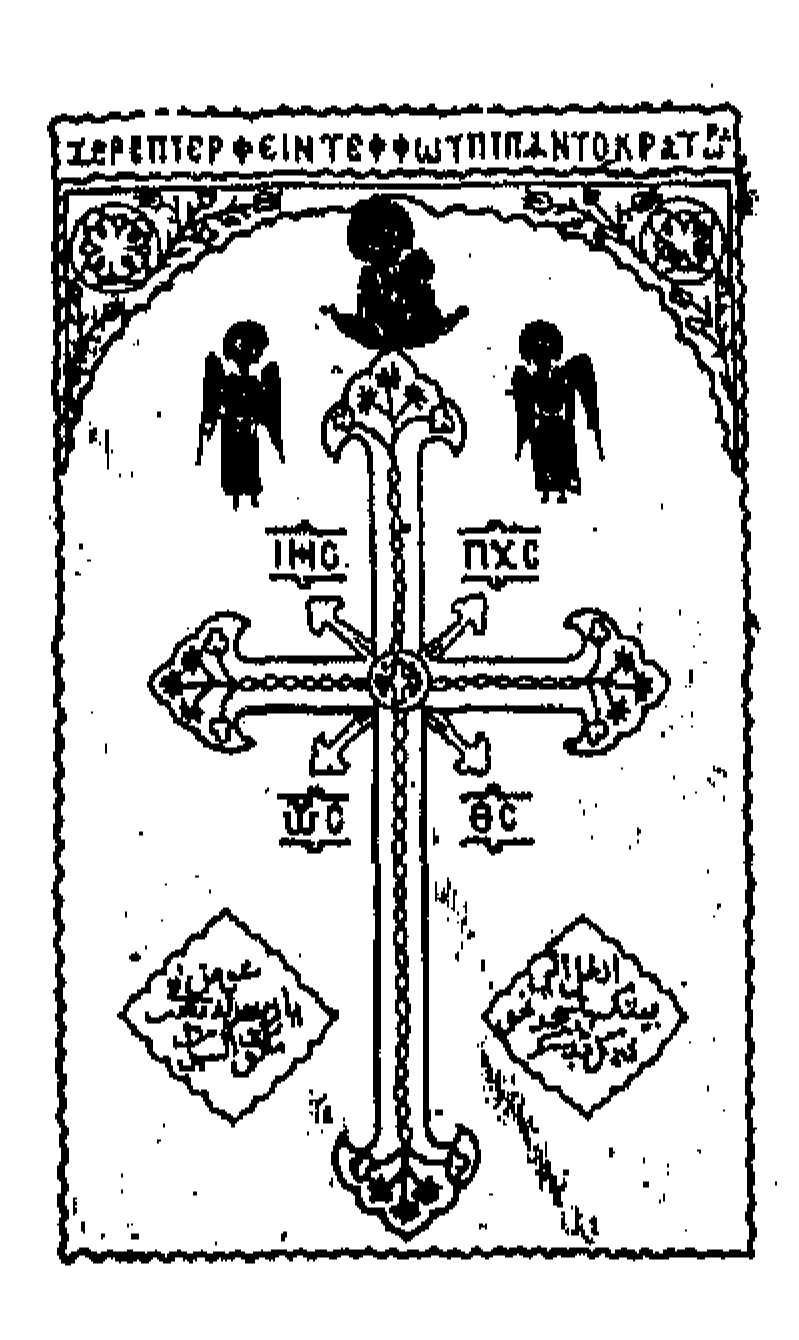
إن غاية التربية الدينية هي صنع القديسين ، ومن الثمر تُعرف الشجرة ؛ فأي نظام للتعليم والتربية أثمر رجالاً قديسين يشهدون بحياتهم لفاديهم أكثر مما صنع نظام كنيستنا ؟

إذن ، فلابد أن تتيقظ أرواحنا ومشاعرنا لندرك التعارض الذي تحمله وسائل التربية الدينية الغربية مع روحنا التصوفية الشرقية الهادئة المستقرة . وأن واجبنا الآن هو بعث الروح القبطي في التعليم والتربية المسيحية واكتشاف ما يحويه هذا النظام من إمكانيات ووسائل عملية كي نطبقه تطبيقاً واعياً لنصنع في جيلنا هذا ما حققته الكنيسة في كل تاريخها ــ حين جعلت أبناءها قديسين يحيون هنا على الأرض ناظرين إلى القدوس الذي دعاهم ــ ومنتظرين مجيئه في حب ورجاء وبثقة .

وكي يتحقق هذا الهدف ، هناك واجب حتمي تلقيه الكنيسة في هذا الجيل على أولئك الذين وهبهم الله قوة الترجمة والإنشاء لكي يقوموا بترجمة تعاليم الآباء الأُول وهي ذخيرة تربوية دينية فلسفية هائلة توجد في مجموعات الكتب التي ظهرت حديثاً باسم آباء ما قبل نيقية وآباء نيقية وبعد نيقية ــ ومجموعة الفيلوكاليا الأصلية الكبيرة التي تحوي جميع أقوال الآباء الروحيين . بذلك يتيقظ الوعي عندنا ونمهد السبيل الصحيح

لتربية أرواح الأبناء من نبع تعليم آبائهم الأصيل النقي ، فلا يعودوا يتسولون جرعة ماء من شعوب عطشى ، بل يرتوون من نبعهم الخاص فتخرج من بطونهم أنهار ماء حي تسقي العطاش وتقودهم إلى الحق .

(يناير ١٩٥٨)



الفصل الثاني
الخدمة وروح المنهج الأرثوذكسي

كانت الكنيسة في الأجيال السابقة لا تقوم بعملية التربية الدينية كما نراها اليوم بصورتها المتخصصة ، لأن البيت القبطي كان هو مركز تسليم الروح الدينية الأرثوذكسية . فالأب والأم و بقية أفراد الأسرة كانوا يشعرون بمسئوليتهم العظمى من جهة تسليم روح الكنيسة لأولادهم ، فكان الولد يستقي منذ الطفولة روح الكنيسة والمعرفة الدينية بالتلقين اليومي ، بالنموذج الحي ، بالتوجيه العملي ، بالقيادة ، والقدوة .

ولكن الكنيسة منذ بداية القرن العشرين التزمت بالتربية المتخصصة بعيداً عن الأسرة بسبب طغيان المجتمع خارج البيت والكنيسة وانصباغه بروح عالمية مضادة تماماً للدين والأخلاق المسيحية . وفي نفس الوقت أصبح البيت المسيحي عاجزاً عن تسليم روح الكنيسة بسبب هبوط مفاجىء في المستوى الروحي مع فوارق الثقافة والتقدم العلمي بين جيل الآباء وجيل الأبناء .

هنا التزمت الكنيسة أن تستعير الأتقياء الناضجين من جيل المثقفين لتثقيف الأجيال الصغيرة الصاعدة لتعوض عن البيت النموذجي . الخادم هنا هو ممثل البيت المسيحي التقليدي ، رسول الروح الأبوية التقليدية يحمل روح الآباء و يسلمها للأولاد .

و بدخول التربية الدينية مجال التخصص الكامل خارج البيت وحملها مسئولية تربية الأجيال ، أصبح من ألزم واجباتها استيعاب الروح الأرثوذكسية بأصولها وفروعها وتسليمها بكل أمانة ودقة حتى يُكتب للأرثوذكسية الإمتداد والإنتشار .

ولكي ندرك أصالة التسليم والتلقين الأرثوذكسي في الأجيال الأولى ، يكفي أن نتذكر كيف كان الشبان وحتى الأولاد يُقبلون على الإستشهاد واحتمال أبشع أنواع التعذيب في أزمنة الضيق والإضطهاد بحرارة وحماس يفوق قامة الكبار والشيوخ . وهذا يكشف عن مدى النجاح الهائل الذي بلغه البيت المسيحي أي الآباء والأمهات وأيضاً الكنيسة في تسليم روح الإيمان وحرارة العقيدة في ذلك الزمان .

وصورة أخرى تكشف لنا عن مدى أصالة التعليم الديني عند الشعب على اختلاف قاماته ومستوياته ، هذه الصورة هي سلوك الشعب أثناء حروب العقيدة التي كان يخوضها الشعب بنفسه ضد البدع والهرطقات في أزمنة المجامع ــ الأجيال الثالث والرابع والخامس ــ فقد سجل لنا التاريخ الكنسي مناظر رائعة للشعب رجالاً ونساءً وهو يرتل التراتيل الخاصة بالعقيدة في البيوت والأسواق والحقول والمرافىء ، وذلك تأكيداً لأصالة الإيمان الأرثوذكسي وتحدياً للخارجين عنه . وهذا يكشف أيضاً عن مدى ما بلغه كافة الشعب من وعي ديني بعقيدته وتقليده .

إذن فكل ما نسعى إليه في الخدمة ، عندما يوكل إلينا تربية الأولاد أو الشبان أو بقية الشعب ، هو أن نبلغ بالإيمان المسيحي عندهم إلى مستوى الحياة ، وبالتالي نصل بالعقيدة إلى مستوى الشهادة الواعية ، أي أن يصل الإنسان في تدينه إلى أن يفضل الموت عن الحياة بدون المسيح : « لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح » (في ١ : ٢١) ، أي أن يعيش معه وفي حضرته ولا يطيق أن يعيش بعيداً عنه ، وأن يجاهر بالأرثوذكسية كميراث أوحد لكنيسة حملت صليب المسيح ألفي سنة !! فإن بلغت الخدمة هاتين الغايتين تكون قد نجحت فعلاً في سعيها ...

وقد يظن بعض المجددين في التربية الدينية أن متطلبات العصر تحتاج إلى تغيير أو تطوير في المناهج الفكرية الآبائية ، هذا وهم خاطىء ، فالأرثوذكسية بالذات أقوى ما فيها هو التقليد بل إن التقليد هو قوتها وحياتها ، والتقليد الأرثوذكسي حياة مسيحية موروثة وليس فكراً ، والحياة في المسيح لا تشيخ ولا تتبدل ، كالمسيح نفسه أمس واليوم وإلى الأبد هو هو. والحياة المسيحية الأرثوذكسية بلغت منتهى قوتها منذ البدء والعالم كله يشهد لها ، فليس من بعد أثناسيوس وكيرلس وأنطونيوس ومقاريوس من تعديل أو

تجديد ، فقد بلغوا إلى ملء معرفة المسيح والحياة معه وسلّمونا هذا الملء عينه وهذه الحياة ، ولا زلنا منها نشرب ولن نأتي على نهايتها حتى يأتي المسيح !!

صحيح أن هناك مشاكل ومسائل تطرح علينا اليوم في الخدمة ، ولم تكن تطرح على آبائنا من قبل ، كمشكلة تحديد النسل مثلاً أو الطلاق أو الهجرة أو المخدرات أو استخدام الراديو أو التليفزيون أو عمل برج يصل إلى القمر ، أمور جديدة تماماً استحدثها مجتمع صاخب متضارب . ولكن لا ينبغي أن نتهرب من مواجهتها ، كما لا ينبغي أن نجحدها كأنها لم تكن ، وهي واقعة في بيوتنا تحت سمعنا و بصرنا . فمشاكل اليوم لا تُحل بنعم أو لا إنما يلزم أن نُخضعها لفكر المسيح لنخرج لها بحلول جذرية تتمشى مع روح العقيدة ومع كل فرد ، دون أن نتجاهل الواقع أو ننطوي تحته ، فالخادم الروحاني الذي انفتحت بصيرته بروح المسيح واستوعب الإنجيل وروح التقليد يستطيع أن ينزل إلى كل مستوى ليرتفع بكل مستوى .

حينما نبحث عن أصول الخدمة في الكنيسة على أسس أرثوذكسية ومناهج موضوعة خصوصاً في الأربعين سنة الماضية نواجه فضيحة لابد أن نعترف بها ، فهي لم تكن أرثوذكسية إلا إسماً ، فكان الخدام المسئولون يستخدمون المناهج الغربية أي البروتستانتية يترجمونها كما هي مع إضافة بعض فصول عن الأسرار والطقوس والقديسين والشفاعة ، متوهمين أن مثل هذه اللصقات كفيلة أن تجعل المنهج أرثوذكسياً .

ولكن ما يلزم أن نعرفه الآن أن المنهج الديني لا يعني أبداً تبويب بعض مواضيع وتقسيمها على فصول السنة ، فهذا يسمى **برنامجاً** وليس **منهجاً** . المنهج الديني يختص بالأساس الروحي الثابت الذي يطابق روح التقليد والذي نفهم به المواضيع ونشرحها ، وليس هو الموضوع في حد ذاته ، المنهج هو طريقة الفهم والشرح والإستيعاب . فهل نفهم الإنجيل والآيات بمنهج أرثوذكسي أو بمنهج غربي (بروتستانتي) ؟ هل نفهم الكنيسة والطقوس والأسرار بمنهج أرثوذكسي قبطي أو منهج غربي (بروتستانتي) ؟ فالرجل الغربي (البروتستانتي) عنده طقوس وعنده أسرار ، ولكن طريقة فهمه وشرحه واستيعابه لها تختلف جذرياً عن الطريقة الأرثوذكسية .

كذلك فالمنهج يتعلق بطريقة التعليم والتربية والأسلوب الذي نستخدمه لنمو مدارك الأولاد والشباب ، فهل الطريقة التي نستخدمها في التربية الدينية ـــ أي الخدمة بمعنى أصح ـــ تتبع طريقة تعليم غربية بروتستانتية عقلية ، أم طريقة تعليم شرقية أرثوذكسية روحية ؟

كذلك المنهج يرتبط ارتباطاً جذرياً بالمُثُل العليا التي نوجه إليها التربية ، أو بمعنى آخر أن المنهج مسئول عن الصورة النهائية التي ينتهي إليها نضج الشاب و يتبلور عليها فكره وروحه . فهل المثل النهائي أو الصورة المثالية التي نضعها نصب أعيننا في الخدمة تهدف نحو مثل غربي بروتستانتي فردي متحرر، أو مثل أرثوذكسي كنسي جماعي ؟

ونحن حينما نفرق بين منهج بروتستانتي ومنهج أرثوذكسي ، فنحن في الحقيقة لا نتعرض لعقائد وإنما نفرق أساساً بين منهج غربي ومنهج شرقي ، فالبروتستانتية وليدة عقل ألماني ، قامت مناهجها على أساس المنطق العقلي والمحاجاة الفكرية والحرية الفردية لإنسان أو لبعض الناس الغربيين الذين لم يستسيغوا ولن يستسيغوا أن يخضعوا للروح إلا بما يقبله العقل . فالمنهج البروتستانتي منهج عقلي فردي . ولأن لكل إنسان عقله ، لذلك صار لكل إنسان غربي منهجه ودينه .

المنهج الأرثوذكسي منهجٌ روحيٌ وليس بعقلي ، فهو يُخضع العقل لفعل الروح ، وليس العكس . ومعروف أن الروح لا يعمل أبداً على مستوى فردي فهو يجمع ولا يفرق ، يوحد كل إثنين فيجعلهما واحداً ، وبهذا لا يبقى خلاص أو دين لفرد ، فلا خلاص في المنهج الأرثوذكسي خارج الكنيسة أي خارج الجماعة المتحدة بجسد المسيح وروحه . الأسرار المرفوضة في المنهج البروتستانتي هي في المنهج الأرثوذكسي أساس التجميع والوحدة : فسر المعمودية يلد الفرد ، وفي الحال يضمه إلى جسم الكنيسة بالإفخارستيا ، وسر الزيجة ينهي على الروح الفردية ويجعل الإثنين جسداً واحداً ، وسر الكهنوت يحقق سر المصالحة في الكنيسة لجمع المتفرقين إلى واحد ، وسر الإعتراف عودة بالضال المنفرد إلى الكنيسة جسم المسيح السري ، وسر مسحة المرضى هو سر انسكاب الشفاء الروحي للتأمين ضد الإنفصال . الأسرار كلها إذن تجمع وتوحّد وتؤمّن نمو الجماعة ، المنهج البروتستانتي يرفضها إن لم يكن شكلاً فموضوعاً ، لأن البروتستانتية ديانة فردية تقدس الحرية الفردية والحرية العقلية .

ومن هنا أظن أنه يتضح خطورة ترجمة المناهج البروتستانتية وإعطائها عناوين أرثوذكسية ، لأن الخط الفكري الغربي يتغلغل في كل كلمة وكل فكرة وكل موضوع وكل طريقة ، وسبق أن قلنا أن المنهج له تأثير حتمي على فكر الخادم والمخدوم . فالمنهج الغربي يوجه توجيهاً لاشعورياً لتكوين جيل عقلي فردي متحرر.

الكنيسة الأرثوذكسية تعاني الآن معاناة مؤلمة من جراء الجرعات التربوية الغربية التي سقاها لها المجددون في التربية الكنسية .

الشباب اليوم ازدحم عقله بالثقافة والمعرفة الدينية دون أن يكون لها واقع حي في حياته وسلوكه ، إلا بالقدر الذي استقاه هو بنفسه من الأمثلة الحية التي رآها . هذه هي النتيجة الحتمية لمنهج مدارس الأحد الذي اضطلع به الخدام والأمناء منذ الثلاثينات من هذا القرن .

الشباب اليوم ينتقد بمرارة الأوضاع الكنسية والصلوات الطويلة والأصوام الكثيرة والألحان واللغة القبطية ، لأنه لم يتذوقها بالقدر الكافي ، ولم تكن جزءً من منهج تربيته وحتى ولو كانت جزءً من برنامج دروسه التي تعلمها وحفظها وبرع فيها ، فهي لم تكن على مستوى الممارسة الحية والخضوع الروحي والتذوق الكنسي ... لقد كان البرنامج أرثوذكسياً شكلاً ، فالمواضيع أرثوذكسية بلا شك ، فقد درس الشاب عن القديسين والشفاعة والأعياد والأصوام كما يدرس الطالب المسيحي في كلية الآداب التصوف الإسلامي والهندي دون أن يمارسه ويعيشه حقاً . لقد درس القداس الإلهي على مستوى بروتستانتي ، أي عقلي ، فقد عرف كل شيء فيه ولكنه لم يتذوقه ويخضع له بروحه فبقي حضور القداس عنده مجرد طاعة ، أو التزام معرفة وتطبيق معلومات وليس حياة يحياها ويستمتع بها كمصدر سرور وعزاء لا غنى عنه .

الشباب اليوم يسأل كثيراً ويناقش ويحاجج في الروحيات كأنها علوم ، فبعد كل سؤال سؤال آخر ، ووراء كل نقاش إستعداد لنقاش آخر ، والمحاجاة محاجاة من أجل المحاجاة ، لأن المنهج الذي عاش عليه منهج عقلي بروتستانتي ، أي غربي ، ينمي المدارك العقلية بالشرح والتوضيح الذهني . فالعقل كبر ونضج وتفتح لمعرفة الروحيات على أساس منطقي علمي ، لذلك فلن يكف عن السؤال ولن يقف عند نقاش معين أو ينتهي

عند محاجاة ، بل المزيد ثم المزيد إلى مالانهاية حتى تصطدم المعرفة باللامعقول ، والمعرفة حتماً تصطدم باللامعقول في المجال الديني ، لأن الروحيات ليست قابلة للسؤال إلى مالانهاية ولا تخضع للنقاش إلا على أساس التسليم بما يفوق العقل والمنطق .

والمنهج الأرثوذكسي يختلف عن المنهج البروتستانتي إختلافاً جوهرياً .

فالمنهج البروتستانتي يعطي المعرفة المجردة أولاً لتكون هي الطريق والباب إلى الممارسة بعد ذلك .

المنهج الأرثوذكسي يجعل الممارسة أساساً « تعال وانظر » ، أي « **تعال وانظر لكي تعرف** » . فالحضور إلى الكنيسة والمشاركة في القداس وممارسة الأسرار وحياة التوبة ومعاشرة الأتقياء والأمثلة الحية هي الأساس الذي تنطلق منه المعرفة ، فالخبرة في المنهج الأرثوذكسي يتحتم أن تسبق المعرفة . ومن الواقع الروحي والقدوة والسلوك والنموذج الحي الذي يقدمه المنهج الأرثوذكسي تنبع المعرفة الروحية حيث تكون المعرفة هنا معرفة ملهمة . والخادم الأرثوذكسي يستخلص من الواقع الروحي الحي الذي عاشه هو والذي تعيشه الكنيسة دروساً للحياة ، وهنا يتضح أن المنهج الأرثوذكسي ليس منهجاً فكرياً يقوم على المعرفة المستقاة من الكتب .

لذلك فالمعيار الأساسي للمنهج الأرثوذكسي هو: **لا معرفة بدون ممارسة ، ولا تعليم بدون عمل مسبق ، ولا سؤال قبل المحاولة والتطبيق ، ولا مناقشة إلا بعد تذوق ؛** حيث تكون المعرفة دائماً أبداً منبثقة من الخبرة ومطابقة لها ؛ وهنا يكون السؤال والجواب فرصة لعرض **خبرات حية** أي **لتسليم حياة** و بالتالي واسطة للإمتداد في خبرات أكبر...

الشباب في الكنيسة الأرثوذكسية اليوم يحس أنه حر يذهب ليستقي المعرفة الروحية من أي جمعية أو أي كنيسة خارج كنيسته ، هذا في الواقع نتيجة حتمية لتطبيق المناهج البروتستانتية الغربية التي أنشأت عقل الشباب على لذة المعرفة العقلية أكثر من الممارسة ، فأصبح المهم عندهم أن يعرفوا أفضل ، و بالتالي فهم أحرار يذهبون وراء المعرفة الروحية الأفضل أينما وجدوها لعلها توصلهم إلى حياة أفضل ... وهيهات ، لأن وظيفة العقل في الروحيات أن يستوعب فقط لا أن يقود .

المنهج الأرثوذكسي لا يجري وراء لذة المعرفة بل يسعى جاهداً ليوحد الشاب في جسم الكنيسة أولاً ، أي يربطه بالمسيح ومع الجماعة : جماعة الأتقياء المفديين ، حتى يأخذ منهم صورة لعشرة المسيح ثم يستقيها منهم بواسطة توجيههم وإرشادهم أولاً بأول . لذة الأرثوذكسي أن يعيش مع المسيح داخل الكنيسة في ظل مثل صالح تحت رعاية أب تقي يخاف الله ليصل بواسطته في النهاية إلى قصده السعيد .

المنهج الأرثوذكسي يرفض أي معرفة روحية خارج الواقع الحي الذي عاشته وتعيشه الكنيسة ، مهما كانت هذه المعرفة براقة ومشوقة ، لأنها بالنهاية ستفصله عن جسم الكنيسة ، عن أمه التي ولدته من سر معموديتها . القديس أغسطينوس يرفض حتى الكتاب المقدس نفسه إذا قُدّم له أو فُسّر له من غير الكنيسة : « أما من جهتي فأنا لا أؤمن بالإنجيل إلا كما يوجهه سلطان الكنيسة » .

المنهج البروتستانتي غربي بطبيعته ، كما قلنا ، وهويميل إلى فصل الحياة داخل الكنيسة عن الحياة خارجها ، وقد سمى الحياة خارج الكنيسة بالحياة الإجتماعية . فالمسيحي البروتستانتي كما نراه في الغرب يستطيع أن يعيش حياتين ، كلاً منهما لها تقليدها الخاص ؛ حياة دينية للعبادة ، وحياة اجتماعية ملؤها الحرية الجسدية والملذات والملاهي والإنحلال .

المنهج الأرثوذكسي لا يفصل الحياة داخل الكنيسة عن الحياة خارجها ، الكنيسة تؤهلني ضمن ما تؤهلني لكي أحيا خارج الكنيسة كما أحيا داخلها تماماً . المسيحي الأرثوذكسي لا توجد عنده حياة اجتماعية ذات تقليد خاص ، فحياته الإجتماعية هي هي حياته المسيحية نفسها بكل واجباتها وتقاليدها .

البيت الأرثوذكسي كنيسة ، والكنيسة بيت أرثوذكسي ، وإذا اجتمعت أي جماعة أرثوذكسية في أي مكان فأول ما يعملونه يصلون و يسبحون ، فيجعلوا المكان كنيسة .

الشباب الأرثوذكسي يحاول الآن أن ينشيء له تقليداً اجتماعياً جديداً لامسيحياً خارج الكنيسة ، متشبهاً بالغرب ، مخالفاً بذلك ميراثه الأرثوذكسي وتقليده الأصيل . العيب هنا يقع على المنهج الديني حيث يكون الأساس الذي بُني عليه وجدان الشاب

ومزاجه الديني أساساً عقلياً . والأساس العقلي غير ثابت و بالتالي غير ملزم . لذلك فهو يعطي فرصة للشاب أن يتحرر وأن يعيش كما يشاء ، في حين أن المنهج الأرثوذكسي السليم يربط الشاب بالكنيسة ، و بالتالي يُخضع حريته للحق الواحد والروح الواحد الذي تستقي منه الجماعة ، فيصبح الشاب له نفس تفكير الجماعة وسلوكها . فرق كبير بين أن ألقن الصبي درساً عن القداس الإلهي مشروحاً ومنمقاً بنماذج ووسائل إيضاح ، و بين أن أقوده داخل القداس بقدوتي و بخشوعي ، ثم بعد ذلك بحياتي ، التي يكون قد انطبع عليها القداس فأعطاها صورتها التقوية وسلوكها الخشوعي خارج الكنيسة .

الطريقة الأولى عقلية غربية سهلة ، لا تكلف المدرس أكثر من ساعة يحصر فيها عقله لتحضير الدرس وشراء قربانة وشمعتين كوسيلة إيضاح ، هذا منهج غربي .

أما الطريقة الثانية فهي عملية روحية خالصة تستلزم أن يكون المدرس كنسياً بالمعنى الكامل ، روحياً مخلصاً في روحياته ، محباً لكنيسته مواظباً عليها بتقوى كاملة وخشوع ، عاش طبقاً لنموذج حي ، أي أب أو مرشد تقي ، و بذلك يكون قد استلم السلوك الروحي داخل الكنيسة وخارجها ونجح في إخضاع فكره وقلبه ولسانه لروح القداس والكنيسة .

الطريقة الأولى تعطينا شاباً عارفاً بالكنيسة ولكن غير متأثر بها متقناً لكل طقوسها وأسرارها ولكن غير عائش فيها ، وهذا بالتالي يؤهله أن يعيش حياتين : حياة داخل الكنيسة لها صورة التقوى وحياة خارج الكنيسة إجتماعية حرة من الكنيسة ، غير منطبعة بها ولا متأثرة بروحها .

الطريقة الثانية تعطينا شاباً حياً في الكنيسة ومتحداً بها ، ومن حياته الكنسية واتحاده بروحها وأسرارها يستمد كل سلوكه وتصرفاته خارجها . و بذلك تصبح حياته خارج الكنيسة طاعة وتطبيقاً عملياً مباشراً لما اكتسبه بالروح من إلهامات وتوجيهات خفية داخل الكنيسة والأسرار.

وهكذا فإن برهان المنهج الأرثوذكسي الصحيح في التربية يظهر بكل وضوح في سلوك الشباب خارج الكنيسة ، حيث يكون السلوك منطبعاً بالإلهام الروحي ورزانة

القداسة أو بمعنى آخر أن لا يكون هناك أي أثر للثنائية أو الإنحلال الإجتماعي في حياة الشباب . □

الباب الثاني
في بناء الخادم

- إعداد الخادم كنسياً .
- بناء الخادم نفسياً .
- البناء الروحي للخادم :

أولاً : العمل النسكي .

ثانياً : بناء عقيدة الخادم .

ثالثاً : البناء الأخلاقي للخادم .

رابعاً : الإختبار الروحي في حياة الخادم .

الفصل الأول

إعداد الخادم كنسياً

الخدمة بوضعها الحالي لا يمكن احتسابها خدمة من داخل الكنيسة بأي حال من الأحوال ... الخدام ليسوا كنسيين ، والإستثناء من ذلك قليل جداً لا يكاد يُذكر ، حتى أننا نستطيع أن نقول أن الخدام كلهم ليسوا كنسيين .

وما معنى خادم كنسي ؟

الخادم الكنسي ليس مجرد خادم درس العلوم الكنسية ونجح فيها بامتياز حسب الدرجات المرصودة ، أو من الدور الثاني ، أو بعد تعثرات كثيرة وملاحق ، لأن روح الكنيسة لا يُدرَّس بل يُسقى « كلكم سُقيتم روحاً واحداً » (١ كو١٢ : ١٣) ، و« فكر المسيح » لا يُستمد من الكتب و بالتالي لا يمكن طرحه حياً في مناهج وتجزئته على علوم ، بل هو مستمد من المسيح أولاً ومن المسيح أخيراً ودائماً . وفكر المسيح هو روحه « الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة » (يو٦ : ٦٣) ، صحيح أنه ينبغي أن يكون من خلال معلم وكتاب و ينبغي أن يكون له شهادة ، ولكن لن يكون ذلك بدون شخص المسيح الحي ...

الخادم الكنسي إذن لا يمكن أن تزكيه مجرد شهادة مكتوبة ، بل تزكيه شهادة حية من داخل الكنيسة ، المذبح نفسه يشهد له لأنه يعرفه تماماً كإنسان يطوف حوله دائماً غاسلاً قلبه وفكره وجسده بدموعه و بدم المسيح ، الأواني المقدسة تشهد له وليديه الطاهرتين التي تلفها وترتبها بوقار كثير، خورس الكنيسة يشهد له لأنه جزء حي في هارموني التسبيح ، مكانه معروف في الصف ، وجهه يشيع الثقة في المسيحيين ،

الكاهن يعتمد على وقفاته الصحيحة وصيحاته المتقنة ، الشعب كله يعرف دخوله وخروجه كعمود مضيء متحرك يشيع الفرح والرضى في قلوب المصلين ، ليالي الأعياد تزدهر بتسبيحه وبمعرفته لكل مناسباتها بإتقان وفهم من مردات مناسبة ، وقراءات محفوظة ، وألحان مخصوصة ، وطقوس ذات معاني وبهاء ومجد ...

الخادم الكنسي إذن لا تزكيه معرفة الكتب الكثيرة أو التعليم الكثير، يزكيه روح المسيح الذي يستقيه كل يوم من الكنيسة في الصلاة وفي الأسرار وفي التسابيح ومن صوت المسيح المقروء في الإنجيل بخوف ورعدة ووقار الحضرة الإلهية .

الخادم الكنسي ، إذن ، لا يزكيه الوقوف على المنابر دون أن يزكيه أولاً مكانه في خورس المرتلين وإتقانه التسبيح والخدمة بفهم وحكمة الروح ، تزكيه وقفاته الخاشعة أمام المذبح رافعاً الصليب ، خادماً الأقداس ومتناولاً من القداسات ، أو كيف يمكن للخادم أن يعرِّف الناس بالمسيح وهو لم يستقِ من روحه ؟ وهل يمكن للخادم أن يدَّعي لنفسه خدمة المسيح وهو لم يخدم بيته ولا عرف كيف يخرج و يدخل أمامه ؟

الخادم الكنسي لا تزكيه قراءاته في كتب الشرق والغرب واقتباساته من كل من هب ودب و بكل اللغات ، وهو لا يعرف أن يقرأ كتب الكنيسة ويجهل لغتها و يتهيب مواقفها و يتهرب من صلواتها ، وكأنما ليس له في الكنيسة مكان إلا المنبر الذي يتدرب عليه خارج الكنيسة ويختلس الطريق إليه ، لا من بابه الرسمي بل كمن يتسور الأسوار و يدخله من الشباك .

الخادم الكنسي لا يزكيه صوته الحسن ومعرفته الفذة بتراتيل هذا عددها وأوزان كثيرة غربية بروتستانتية غريبة عن أذن الكنيسة لم تعرفها ولم تتعود عليها ولا تستسيغها ، لها معاني جيدة ولكن روحها مستوردة لا تربط السامع بكنيسته ولا تبني النفس على التأصل في تراثها ، بل تسرق الروح لتطرحها على أعتاب كنائس الغرب تلتقط الفتات من موائد أوزانها وطرائقها أولاً بأول ، مع أن خزائن الكنيسة تحوي المئات من الألحان المبدعة التي باتت حزينة مهملة كعملة ذهبية قديمة تنتقل من خزانة إلى خزانة ..

الخـادم الكـنـسي لا يـزكـيه تحضير الدروس والإتقان في اختيار الآيات وطرائق الإيضـاح وتسديد خانات الحضور والتناول ، ولكن تزكيه حياته داخل الكنيسة ومحبته لهـا وغيـرتـه عليها وإيمانه بها وممارسته لكل طقوسها وتشبُّعه بتاريخها وقديسيها وإحساسه أنه جزء حي فيها .

* * *

ولكن ما هو الطريق إلى ذلك وما هي الضمانات ؟؟

أولاً : الطريق العملي لإعداد الخادم كنسياً

حينما نـسـأل أو نـبـحـث عـن ما هو الطريق العملي للإمتلاء من الحياة الكنسية ، يـلـزمـنـا في الحال أن ندرك أننا نسأل ونطلب ما يفوق كل طرق المعرفة العقلية والعملية التي يسير عليها العالم ، وهذا يعني ببساطة وصدق أننا داخلون في سر ، سر المسيح أو سر الكنيسة ...

وقـبـل أن نـدخـل في هـذا السر ، سر الخـدمة ، يلزمنا أن نفهم ونتيقن أن المسيحية لـيـست نـظـريـات فـلسفية ، ولا هي مبادىء أخلاقية سلوكية ، ولا هي مجرد طقوس وتـرتـيـبـات وأنظمة ، بل هي قبل كل شيء حياة ، حياة جديدة ، حياة طاهرة ، حياة بـسيطـة ، حيـاة محبة وتواضع ، هدفها واحد وحيد هو **اتحاد بالمسيح و بالناس** ، هذا الإتحـاد أو الوحدة التي تجمعنا بالمسيح و بالناس هي هي **« الكنيسة »** . لذلك فالخدمة الـصحـيـحـة تـبـتـدىء من الكنيسة وتنتهي إلى الكنيسة ، أي أن غاية الخدمة ومطلب الخـدمـة وسـعـي الخـدمـة مـن الأول إلى الآخـر ، هي أن يصير الخدام والمخدومون وحدة واحدة في المسيح ، بالحب المتبادل ، والثقة المتبادلة ، والتواضع الصادق ، الصغير للكبير والـكـبير للصغير ، حتى نرفع جميع الفوارق والحواجز التي تعطل هذه الغاية السعيدة . لأن في هـذه الـوحـدة فـقـط تزدهر المعرفة وتزدهر الفضيلة وتنسكب المواهب و يرتاح الروح و يفرح المسيح و يعيش في الجميع ، فتنمو الخدمة وتنمو الكنيسة .

سر الخدمة :

سر الخـدمـة مختفي ومـتـوزع داخل كافة الصلوات الليتورجية داخل الكنيسة ، لأن

صلوات الليتورجية التي للإفخارستيا والتسابيح هي روح الكنيسة ، أو هي رئة الكنيسة التي تتنفس منها الروح القدس فيسري فيها دم المسيح لقبول فعل الحياة الأبدية ، وكل من يشترك فيها يحيا و يتجدد يوماً بعد يوم .

الخادم أو المعلم في الكنيسة عليه أن يدخل أولاً إلى عمق هذه الشركة الحية ، حتى يستطيع أن يكتشفها أولاً لنفسه ، حتى يقدر أن يوضح أعماقها وغناها وغايتها للآخرين .

من ذا يستطيع أن يقول للآخرين « ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب » ؟ إن لم يكن هو قد أكل وشرب من هذا الطيب واستعلن ونظر وعاين صلاح الرب ؟ ... التعليم أو التربية الكنسية في عرف الأرثوذكسية ينبغي أن تكون أولاً وقبل كل شيء تعليم الصلوات وتربية الروح بالليتورجية في كل نفس .

وإن أعظم ضمان لنجاح التعليم ونجاح التربية الكنسية هو في التشبع بالصلوات والتشبع بالقداسات قبل البدء في شرحها وتحليلها حتى يسبق التذوق المعرفة وتسبق الخبرة الفهم ، أي تصير التجربة الروحية هي المنطلق الوحيد للنمو وليست المعرفة العقلية أو الفهم والمحاجاة !!

وليكن معلوماً لدى كل مربي وكل معلم وكل خادم في الكنيسة ، أن الحصيلة الوحيدة التي تبقى مختزنة في أعماق الطفل وتظل توجه تفكيره وسلوكه وإيمانه حتى الكبر هي التي يتحصل عليها في اللاشعور، أي التي يستقبلها بوجدانه وليس بعقله !

وهنا تبدو الليتورجية والتسابيح والخدمات الطقسية أستاذاً كبيراً بارعاً لا يجارَى في تغذية اللاشعور وإشباع الوجدان بكل ما هو روحي وكل ما هو جليل .

أما بالنسبة للخادم حتى وإن كان قد تجاوز مراحل الطفولة دون التشبع بالروح الكنسية ، فلا يزال أمامه المجال رحباً والباب مفتوحاً على مصراعيه ، لأن التعمق في الروح لا يتناسب مع الزمن بل يتناسب مع الغيرة والحرارة والحب . فمجرد اشتراك الخادم في الخدمات الكنسية بروحه وتفتُّحه للصلوات وتقبُّله لحركات الروح في القلب كفيل بانفتاح بصيرته لمعرفة الإلهيات وتعمُّقه في فهم كل علوم الكنيسة دون جهد من

العقل كثير، لأن الإتضاع والوقار الذي تتسربل به النفس و يتسربل به العقل أثناء العبادة والصلوات كفيل بأن يرفع العقل فوق مستواه ، حتى ليكاد الإنسان ينبهر من فرط التغيُّر وعمق الإمتداد .

أرأيت إذن كيف ينفتح سر الإتضاع والوقار على الإنسان وقت الليتورجية فينفتح عليه سر المعرفة وسر البصيرة الذي يمتد بالإنسان إلى كل علم وفهم فيما يختص بالإلهيات ؟

إذن ، فلا تتعجب أيها الخادم حينما نقول لك أن سر الخدمة هو في سر الليتورجيا !!

ولكن ليست المعرفة والبصيرة والتعمق في الإلهيات وحدها هي الهدف النهائي للخادم كما سبق وقلنا ، بل الوحدة مع الآخرين ومع المسيح بالحب . وهنا نقول أن شركة الخادم في الليتورجيا هي الفرصة الإلهامية العظمى التي يبلغ فيها الإنسان إلى عمق نفسه حيث يواجه حالة من الإتضاع الصادق الشديد الذي يهز كل كيانه و يُسقط كبرياءه إلى الحضيض ، وهنا ينفتح على الإنسان مجال الندامة واستعداد الصفح والحب لكل إنسان . إذن فمن خلال الليتورجيا تسقط معطلات المحبة و بالتالي يدخل الإنسان يوماً فيوماً في سر الوحدة العظمى مع كافة الناس ومع المسيح... وهنا تكون الخدمة قد بلغت الذروة في نجاحها ، و يكون الخادم قد بلغ الغاية من رسالته .

ولكن حذار! فإن الليتورجيا في الكنيسة قد تكون ميتة وقد تكون حية ، والذي يميتها ويحييها هو قلبك وصدقك ، هو إخلاصك في دخولك إلى الله وفي ندمك واتضاعك وحبك ، واستعدادك للإنفتاح على الآخرين...

* * *

ثانياً : وما هي الضمانات ؟

لقد أوضحنا الطريق إلى إعداد الخادم كنسياً ، ولكن لكي نضمن أن يبقى الخادم كنسياً يلزم أن يدخل تحت درجة كنسية حتى يلازم الخدمة الكنسية دائماً وليقوم بواجباتها ، بمعنى أنه ينبغي أن يكون الخادم صاحب درجة ما تتناسب مع قامته الروحية ومع تدرجه في الخدمة . والدرجات للخدمة في الكنيسة تبتدىء من قارىء

(أناغنوستيس) ، ثم مساعد شماس (أي مساعد خادم) ، ثم شماس (أي خادم) ، ثم رئيس شمامسة (أي مقدم خدام) .

والحقيقة التي ينبغي أن نعلمها جيداً ونحرص عليها كل الحرص ، هي أن الكنيسة لا تعرف معنى للخدمة خارج درجاتها الرسمية . فالتربية الكنسية بوضعها الحالي غريبة عن الكنيسة وخارجة على نظامها وتدبيرها التقليدي ، وستبقى كذلك إلى أن تستقر داخل الكنيسة كل واحد في درجته المطابقة لخدمته والمناسبة لمؤهلاته .

ولكن من الخطر كل الخطر أن نُقْدِمَ على الرسامات قبل إعداد الخدام وتأهيلهم للدرجات تأهيلاً كاملاً راسخاً .

وهنا تصير فصول إعداد الخدام عبارة عن خوارس ودروس تعد خداماً للكنيسة بمعنى الكلمة ، يشرف عليها آباء إكليريكيون وأخوة متخصصون في علوم البيعة ولغتها ومرتلون مخلصون لرسالتهم وآباء روحيون .

و يقسَّم المنهج بالنسبة للخدام إلى أربعة مستويات واضحة تتناسب مع الأربع درجات الرسمية للخدمة داخل الكنيسة من قارىء إلى رئيس شمامسة .

ولا ينتقل خادم من رتبة إلى رتبة أعلى إلا بامتحان رسمي وتزكية مكتوبة وتحت ضمانات وتعهدات من المتقدم للرتبة ومن الذي يقدمه حيث يكتب إسمه في سجلات الكنيسة التابعة لها ، و يسلم شهادة في يده تخوله تأدية كل فروض وظيفته التي تحدد له .

و بذلك يكون رئيس الشمامسة (أمين مدارس الأحد) مسئولاً مسئولية كنسية أمام الله والأسقف عن كل الشمامسة (الخدام) ، عن كل الإيبوذياكونيين (المقيدين في فصل إعداد الخدام) ، أما القراء (الأناغنوستسيون) فهم الشبان المقيدون بالفصول الكبيرة وذلك بعد تأديتهم للإمتحان والتزكية المطلوبة لهذه الرتبة .

والمعروف أن كل طغمة الشمامسة تتبع في تدبيرها رئيس الشمامسة ، ورئيس الشمامسة يتبع في تدبيره الأسقف مباشرة .

والواقع أن الكنيسة لم تترك شاردة ولا واردة بالنسبة لنظام وتدبير طغمة الشمامسة إلا أوضحته وقطعت به ، فالأمر لا يحتاج إلى استنباط قوانين أو تغيير أو تعديل بأي وجه من الوجوه ، ولكن لا يعوزنا إلا التطبيق واحترام قوانين البيعة .

ولكن نعود فنكرر أن قيمة هذا النظام الكنسي متوقفة على جدية الآخذين به وعلى الإخلاص في تأدية واجباته لأنه باب حقيقي مؤدي إلى الحياة الأبدية .

الفصل الثاني

بناء الخادم نفسياً

(١)

إن أكبر عقبة تقف الآن في طريق الخدمة لتمنعها من النمو نمواً روحياً أصيلاً حسب الإنجيل وروح الآباء ، هي ضعف المستوى الروحي عند الخدام عامة .

أما السبب الرئيسي لضعف المستوى الروحي العام عند الخدام فهو **ضعف البناء النفسي** ، لذلك تحتم علينا أن نخوض في البناء النفسي لشخصية الخادم قبل أن ندخل في البناء الروحي .

فمن الأمور المعروفة جداً والمسلَّمة إلينا من الآباء ، أن النفس السوية هي وحدها التي تؤهَّل أن تكون روحانية ، وهي التي يتكشف الحق الإلهي أمامها . أما النفس المحمَّلة بالعيوب والضعفات والأخطاء فمن المستحيل أن يرتاح فيها الروح القدس أو تبصر النور بوضوح . ونحن حينما نقول العيوب والضعفات والأخطاء النفسية ، لا نريد أن نخوض الآن في الخطايا الفردية المعروفة ، القادرة أيضاً على إفساد النفس البشرية وحجز النور الإلهي عنها مثل : الكذب ، والرياء ، والبخل ، والطمع ، والوشاية ، والنجاسة ، والكبرياء ، والعظمة المفتخرة في قالب تواضع ، والإعتداد بالذات ، ومحبة الذات ، والجري وراء مديح الناس ، وبقية الخطايا التي تلاحق الخدام وغير الخدام على السواء ، فهذه نتركها الآن لأنها معتبرة خطايا فردية أو ربما نحيل علاجها إلى أبواب أخرى غير باب الخدمة .

لكن نود أن نفرق هنا بين الخطايا الفردية والعيوب النفسية بالنسبة للخادم ،

فالفرق بينهما كبير مثل الفرق بين مرض يصيب العين كالرمد و بين قصر النظر، فالرمد مرض فردي أما قصر النظر فهو عيب عام وظيفي ، وإذ نحن هنا بصدد الخدمة عامة ، فلا ينبغي أن يسترعي إهتمامنا إلا العيوب العامة أولاً .

والآن ما هي العيوب أو الضعفات أو الأخطاء النفسية العامة المشتركة بين الخدام التي تفسد حال الخدام والخدمة وتوقف نموها الروحي وتحجز النور عنها ؟

سنكتفي هنا بعرض ثلاثة عيوب نفسانية بالنسبة لجيل الخدام :

١ ــ روح التبعية .
٢ ــ روح التحزب الفكري والعاطفي .
٣ ــ روح الأخلاق الأسرية .

أولاً : روح التبعية :

الخدام في هذه الأيام ــ لا نقول الشباب بوجه عام بل الخدام ــ ميالون بصورة جارفة أن يتبعوا ، يتبعوا أي تعليم ، أي شخص ، أي فكرة ، يتبعوا وحسب .
هذه الظاهرة واضحة في جيل الخدام المعاصر الصاعد ، ولم تكن موجودة في الجيل السالف المخضرم . الجيل السالف كان يتميز بالشخصيات ، و بكل إعزاز واحترام نقول أنها كانت ولا تزال شخصيات ناضجة مستقلة مكافحة متزعمة في الخدمة ، أغلبهم تكرس ومنهم الآن الأساقفة الأجلاء والكهنة المؤتمنون ، والرهبان ، والأراخنة العلماء الذين أدوا للكنيسة خدمات جليلة . أما جيل الخدام المعاصر فهو مفتقر أشد الفقر إلى المقومات أو المميزات الخاصة بالشخصية ، فهو عوض الإستقلال الذاتى يسوده الآن روح الإندماج والإنتماء ، فما هي علة هذا القصور؟ هناك عدة عوامل أدت إلى هذه الطبخة غير الناضجة من الخدام :

العامل الأول : قلة القادة بالنسبة للأعداد الضخمة من الشباب . والمعروف أن إعداد الخدام ليس هو مجرد إلقاء عظات وحضور قداسات أو تدريس برامج في سنة أو سنتين ، ولكن إعداد الخادم يحتاج إلى حياة مشتركة يأتلف فيها الخدام المبتدئون مع

قائدهم أو معلمهم الروحي ، يختبر قدراتهم ، و يصحح عيوبهم ، و يعدل أفكارهم ، و يبني مداركهم ، و يضع لكل واحد أسس شخصيته ، و يباشر نموهم ، حتى تكمل ملامح شخصية كل واحد منهم بحسب مواهبه ؛ و بتكامل الشخصية يتأهل الواحد منهم للخدمة .

العامل الثاني : جنوح بعض القادة والمعلمين إلى فرض شخصياتهم لتكون واجهة حتمية أو باباً أوحد للمعرفة ، فانطبعت نفوس الخدام بالشخصيات المعلمة أكثر من انطباعهم بالتعليم ، فصار الإنتهاء لشخصية المعلم أو الأب إلتزاماً أساسياً لقبول تعليمه ، وهذا تسبب في مسخ تدريجي للمميزات أو المقومات الأساسية اللازمة لبروز شخصية الخادم ، فعوض الشخصية المستقلة سرت روح التبعية أو الإنتهاء لشخصية المعلم أو الأب .

العامل الثالث : نوع التربية المنزلية منذ ثلاثين عاماً تقريباً ساعدت بدورها على مسخ الشخصية ، إذ كانت تتميز بالدكتاتورية التربوية ، فالآباء منذ ثلاثين سنة كانوا معتزين بمعرفتهم التقدمية ، وقد أخذوا في تطبيق أساليب التربية لطبع شخصيات أولادهم بالصورة الدينية والأخلاقية التي تروق لتخيلاتهم دون اعتبار لإستعدادات الطفل ومواهبه ، و بذلك اشترك الآباء في عملية مسخ شخصية الجيل منذ الطفولة .

العامل الرابع : هبوط مستوى ممارسة الإعتراف والإرشاد الروحي من الجهتين أي من جهة المعرِّف ومن جهة المعترف .

فمن جهة المعرِّف أو المرشد ، فعظم المعرفين والآباء المرشدين يتبوأون مراكز المعرفين قبل بلوغهم الدرجة الروحانية المناسبة التي تؤهلهم لحمل هذه المسئولية الخطيرة ، مع أن الثابت في طقس الكنيسة أن لا يرقى الكاهن إلى درجة معرف إلا بعد بلوغه الخمسين ، على أن تكون بوادر الحكمة الروحية والإلهام والمعرفة وانفتاح البصيرة لكشف النفس وتطبيبها قد وضحت في تصرفاته وحياته ، على أن يُعطَى حِلاً بهذا من الأسقف بعد صلاة خاصة تُقرأ عليه . وكان يسمى في الكنيسة « الشيخ المؤتمن » ، و يكون له امتياز في الكنيسة واحترام كامل من الشعب .

ولكن الحاصل الآن ، أن أي شاب يُرسم كاهناً اليوم ليأخذ اعترافات غداً . وممكن أن يدخل شاب الدير وهو لم يتجاوز بعد سن الشباب ليبدأ حياة توبة بكل صدق وإخلاص واضعاً في قلبه أن لا ينزل العالم أبداً ، ولكن دون أن يدري هو ودون أن ندري نحن ، نجده بعد سنة أو سنتين في وسط العالم يأخذ اعترافات . والسؤال الصارخ الآن : كيف يمكن للمعرِّف أن يبني شخصيات الناس وهو هو نفسه يعاني من ضعف ومن أتعاب ، ولم يبلغ بعد الدرجة الروحانية التي تؤهله أن يأخذ هذه المسئولية الخطيرة ، مسئولية خلاص نفس ! ولادة روح ! بناء شخصية !؟

ومن جهة المعترف أو المرتشد ، فالخدام وجدوا في الإعتراف والإرشاد ، في هذه الأيام ، فرصة مواتية لتكميل خلع ما تبقى من شخصياتهم !! فالإعتراف الآن أصبح عذراً رسمياً يختفي وراءه الخادم ليبرر تصرفاته الشخصية ، فيكفي أن يقول الخادم : أبي في الإعتراف قال لي... هذا لكي يتنصل من كل مسئولية ، ألم يوصِ الآباء والمعلمون بالطاعة الكاملة العمياء ؟ إذن فالتخلص مما تبقى من الشخصية ليس فيه فقط راحة من حمل همّ مسئولية التصرفات الشخصية بل وفضيلة أيضاً . وهنا يتبارى الخدام الآن وبتشجيع من المرشدين والمعرفين لخلع شخصياتهم والإستعاضة عنها بالتبعية لشخصية المرشد أو الأب .

ثانياً : روح التحزب الفكري والعاطفي :

وهذا العيب النفساني يُعتبر نتيجة مباشرة للعيب الأول الذي هو روح التبعية ، فالتبعية للأشخاص تنشىء حتماً التعصب والتحزب لها . وللأسف هذا العيب أصبح عاماً وقد شمل معظم الخدام أو كلهم تقريباً . فما من خادم تقابله أو تتحدث إليه إلا وتجده تابعاً ، وفي تبعيته تجده متحزباً ، وفي تحزبه تجده متعصباً . وهذه في الحقيقة محصلة ختامية لفقدان الشخصية ، ففاقد الشخصية يتحتم عليه أن يتحزب لشخصية أخرى يتمسك بها و يتعصب لها إلى أقصى حد لأن بوجودها يؤمّن وجوده و بدونها يفقد كيانه .

وهنا التحزب بالنسبة للتابع إما أن يكون فكرياً وإما أن يكون عاطفياً ، وهذا يعتمد على نفسية الخادم التابع وصحته العقلية ، فإذا كان الخادم التابع ناضجاً عقلياً

كـان تحز به عاطفياً ، وإذا كان ناضجاً نفسياً كان تحز به فكر ياً ، أما إذا كان ناضجاً نفساً وعقلاً فإنه مستحيل طبعاً أن يكون متحز باً لأنه لن يكون تابعاً ...

والتحزب في الخدمة و بين الخدام ، على أي وجه كان ، مفسد للروح المسيحية أشد الإفساد ، وهو كفيل أن يلغي رؤ ية المسيح تماماً حيث لا يعود ممكناً أن يتطلع الخادم إلى المسيح بوجه مكشوف لأن برقع الأشخاص يحجز ويمنع !!

و بولس الرسول يقطع في عدة مواضع من رسائله(*) أن التحزب للأشخاص والأسماء علامة أكيدة على تدهور المستوى الروحي عند المؤمنين ، و يَعتبر ذلك وصمة على العبادة ويخرجها عن مفهوم العبادة الروحية .

ثالثاً : عدم القدرة على الإنسلاخ من أخلاقيات الأسرة :

ظاهرة أخرى تكاد تكون عامة بين جيل الخدام الجديد ، وهي عدم قدرة الخادم على الإنسلاخ من أخلاقيات وعادات أسرته ، فيدخل حقل الخدمة حاملاً في تفكيره وسلوكه كثيراً من نقائص أخلاقية لا ذنب له فيها ، ولكن لا مفر من القول أنها تشكل خطورة على مستواه الروحي ، بل وتجعله غير مناسب للخدمة الروحية على وجه العموم . ومن هذه الأخلاق والعادات نذكر الآتي :

١ ــ سوء معاملة الخدم واعتبارهم دون مستوى الناس ، و يظهر ذلك في حرمانهم من أبسط المجاملات وفي أردأ أنواع الأكل الذي يُقدَّم لهم ، وفي عدم الحفاظ على شعورهم أو الإهتمام بصحتهم أو تثقيفهم أو الإهتمام بمستقبلهم ، بل ومحاولة التخلص من الإلتزام بحقوقهم من تأمينات ومكافآت بطرق ملتو ية مخجلة . ونحن نضع هذه النقيصة في المقدمة لأنها كفيلة أن تهبط بمستوى الخادم إلى الحضيض .

٢ ــ التباهي بأصل الأسرة والإفتخار بالحسب والنسب والألقاب ونقاوة العرق ، وهذا من شأنه أن يطبع روح الخادم بالتعالي والإعتداد بالذات والإحساس بالتفوق والإمتياز. وهذا العيب الأخلاقي إذا لازم الخادم فهو كفيل أن يعزله باطنياً

(*) ١ كو١ : ١٠ ــ ١٧ و١ كو٣ : ١ ــ ٤ .

عن البيئة التي يعيش ويخدم فيها ، فتجده ، بالرغم من انهماكه المظهري في خدمة الشبان أو الفقراء ، يظل غير متجاوب معهم شعورياً ولا يستطيع أن ينزل إليهم نزولاً صادقاً أميناً بقلبه وعواطفه . وبذلك تظل خدمته خدمة تعالي وإحسان وترحُّم وشفقة ، وليست تنازلاً وبذلاً ومحبة وإماتة ذات ، وهذا كفيل أن يمسخ روح الخدمة والمخدومين وينهي على كل أمل في نموها الروحي . وبينما يزداد الخادم تعالياً بمقدرته وإعتداداً بذاته بسبب نجاح الخدمة الظاهري تظل الخدمة فقيرة في الروح .

٣ ــ **روح الإنعزال والتكتل** ، من طبيعة الأسرات القبطية أنها تحاول أن تعيش في إنعزال حتى عن بقية الفروع الأخرى للأسرة ذاتها . والإنعزال ينشيء بدوره روح التكتل الداخلي . فإذا امتص الخادم هذه الروح ولم يستطع أن ينسلخ عنها في الوقت المناسب ، فإنها تصبغ شخصيته ثم خدمته كلها بحيث يصبح همه الأول هو عزل فصله عن بقية الفصول إن كان خادماً ، أو عزل الفرع كله عن بقية الفروع إن كان أميناً عاماً . ثم يعاود الكرَّة مرة أخرى مع أصدقائه ومريديه والشبان الذين يترددون عليه محاولاً بطرق خفية ومكر نفساني وتخويفات وتهويلات أن يعزلهم عن بقية الذين لا يتبعونه ، ثم يحاول أن يكتلهم ضد الآخرين ليضمن بقاءهم معه . والنتيجة المحزنة هي إمتصاص الشبان أنفسهم لهذه الروح الإنعزالية وفقدانهم إمكانيات الأُلفة والمحبة والإتحاد مع الآخرين لتكوين وحدة عامة روحية ، التي هي هدف الخدمة الأعظم ، والصفة الأولى والجوهرية للكنيسة وغاية المسيح النهائية على الصليب !!

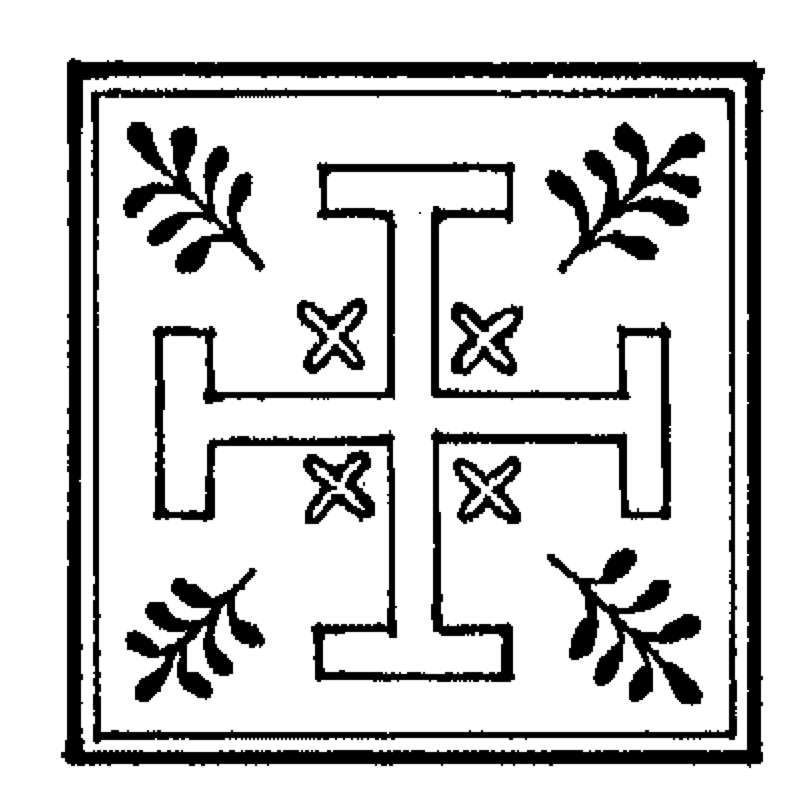
٤ ــ **روح التسلط** : وإن كان هذا العيب النفساني ليس بدرجة الشمول كبقية العيوب السابقة إلا أنه يشكل ظاهرة خطيرة بين كثرة الخدام . فكثير من الآباء في الأسر القبطية من محبي التسلط والإستبداد ، الذين ينكرون أبسط حقوق الحرية على أولادهم حتى ولو بلغوا الرجولة ، ولا يكون أمام هؤلاء الأولاد (الذين أصبحوا جيل الخدام الآن) إلا أن يخضعوا صاغرين مكرهين أمام عنف الآباء وسطوتهم الشديدة .

ولكن هذه الصراعات الحادثة داخل الأسرة لا تمر ببساطة ، فالأولاد يمتصون هذا التجبر عينه ليصبح جزءً من ميراثهم الأخلاقي الأُسري ، فإذا ما أصبح أحد هؤلاء الأولاد الضحايا لتسلط الآباء وتجبرهم ، إذا ما أصبح خادماً يوماً من الأيام ، فحالاً

يباشر التنفيس عن مكتوماته الأخلاقية ، وتبدأ روح التسلط عينها والإستبداد تظهر بوضوح في خدمته ، إنما متقمصة صورة تقوية أبوية ، فيبرر تسلطه بغيرته الشديدة على الخدمة ، و يبرر تجبره على نفوس الشبان بادعائه الغيرة عليهم أو عطفه على مستقبلهم ، ولكي يضمن استمراره في تجبره و يؤمّن خضوعهم له يبدأ يكلمهم عن الطاعة وضرورة الطاعة وأهمية الطاعة وفضيلة الطاعة ، كما كان يعمل أبوه أو أخوه الكبير معه تماماً ...

والنتيجة المحزنة هي تعميم هذا العيب أو بالحري هذه المصيبة النفسانية ، التي كانت مدفونة في حدود عائلة صغيرة ، لتصبح و باءً يعم أثره السيء على شخصيات شبان كثيرين ليعيق نموهم الروحي في الحرية البنوية التي هي أثمن هبات المسيح للكنيسة .

وإلى هنا نكتفي بهذه الصور المحزنة لأنواع الضعفات النفسانية التي تسببت في الهبوط المباشر لمستوى الخدام والخدمة بوجه عام . أما الحلول الروحية لهذه المشاكل النفسية فنرجىء الحديث عنها إلى الفصل القادم تاركين الفرصة أمام كل خادم ليناقش هذه الأمور مع نفسه .



الفصل الثالث

بناء الخادم نفسياً

(٢)

توجيهات إيجابية :

تكلمنا في الفصل السابق عن بعض العيوب النفسية التي تعيق الخادم والخدمة .
وهنا نحاول أن نتغلب عليها بتوجيهات إيجابية في الخدمة نفسها ...
إذا تقومت شخصية الخادم تقومت الخدمة .

مقومات شخصية الخادم

وهنا لا نتعرض لمقومات الشخصية بوجه عام ، ولكننا نقتصر على شخصية الخادم .

فما هي مقومات شخصية الخادم الناجح ؟

١ ــ الخادم الناجح إنسان له **هدف** روحي في خدمته ، محدد و واضح ، يؤمن به ، يحبه ويجد فيه سعادته .

٢ ــ الخادم الناجح إنسان له **مثل أعلى روحي** ، يضعه أمام عينيه على الدوام ، يشده نحو الهدف الذي يسعى إليه ويجمع عواطفه و يلهب إرادته إذا فترت ، للمثابرة على العمل .

٣ ــ الخادم الناجح إنسان له **إرادة** نشيطة مرتبطة بالهدف والمثل الروحي إرتباطاً

شديداً .

٤ ـــ الخادم الناجح إنسان **يعمل** بكل عواطفه وإرادته لتحقيق هدفه ويجد في ذلك سعادته .

١ ـــ هدف الخادم :

وضعنا **الهدف** بالنسبة للخادم في المرتبة الأولى لأنه يجمع شتات الشخصية مهما كانت مبددة ومبعثرة . فبمجرد ظهور هدف واضح في أفق حياة الإنسان ، تبتدىء شخصيته تنجمع على ذاتها ، فتتحدد إرادته وتظهر عواطفه و ينكشف مثله الأعلى . و بالعكس أيضاً إذا ضاع الهدف من حياة الخادم ، إنحلت إرادته وتبددت عواطفه واختفى مثله الأعلى ، وأخيراً تنفك شخصيته وتتحلل .

أي أن الهدف الروحي و وضوحه في حياة الخادم هو المسئول عن تماسك شخصيته أو تحللها . والفرق بين شخصية متحللة وشخصية متماسكة كبير للغاية في الحياة الروحية ، لأن الشخصية المتماسكة ذات الهدف والإرادة والعواطف والعمل النشيط والمثل الأعلى ، تكون شخصية منضبطة ، لا تلعب بها الغرائز ، ولا تكون تحت سيطرة الإنفعالات . أما الشخصية المتحللة التي أصبحت بلا هدف يشد إرادتها ويجمع عواطفها و يدفعها للعمل بنشاط ، فهي شخصية غير منضبطة تتحكم فيها الغرائز والعواطف الهوجاء والإنفعالات المكبوتة .

لذلك نقول ، إن أعظم توجيه يمكن أن يقدّم للخادم الذي يشكو من ظروف تكوينه النفسي ليتغلب على المؤثرات التي أحاطت به وليصبح ذا شخصية متماسكة منضبطة حرة متسامية فوق الغرائز والإنفعالات ، هو أن يحدد لنفسه هدفاً في خدمته بحيث يصبح هذا الهدف واضحاً جداً أمام عينيه .

علماً بأن الخدمة في حد ذاتها لا تصلح أن تكون هدفاً ، بل يلزم أن يكون الهدف أعلا من الخدمة . فماذا يكون الهدف من الخدمة ؟

معروف أن كل خدمة يقوم بها أي إنسان إما يكون هدفها المنفعة الشخصية بأي لون من الألوان ، وهذا لا يمكن أن يكون هدفاً روحياً على الإطلاق ، وإما يكون هدفها

بدون منفعة شخصية ، وهذا معناه أن تصير الخدمة محبة و بذلاً فقط . فنحن إذن لسنا مخيَّرين في انتخاب هدف لخدمتنا ، إذ يلزم بصورة حتمية لكي يكون هدف الخدمة روحياً و بدون منفعة شخصية أن يكون محبة و بذلاً فقط ، ولكي يكون هذا الهدف خالياً من حركات العواطف وسيطرة الإنفعالات ، يلزم أن يكون مقدَّماً حباً في الله أولاً ، ثم حباً لكل الناس بلا تمييز.

وهكذا ننتهي إلى أنه يتحتم على الخادم الذي يريد أن يكون له شخصية سوية في الخدمة ، أن يضع أمام عينيه الهدف من خدمته بصورة واضحة ودائمة . على أنه لا يمكن أن يكون للخادم هدف صحيح في خدمته إلا المحبة في صورة البذل ــ بدون أي منفعة شخصية ــ إنما حباً في الله كالوصية ، بحيث يكون الخادم حساساً ليكشف أي ميل في نفسه تجاه أي منفعة ذاتية من خدمته ، فيبترها في الحال . لأن قبول أي منفعة بأي شكل من الأشكال ، كفيل بأن يجعل هدف الخدمة مزيفاً ، فتصبح الخدمة و بالاً على شخصية الخادم ، إذ تبنيه على الأثرة ــ أي حب الذات ــ و يصبح كل سعيه وجهاده ونشاطه في الخدمة من أجل حب نفسه وليس حباً في الله ، وهنا لا يمكن أن يسمى البذل بذلاً روحياً بل تجارة ، لأنه على قدر العطاء يكون الربح و بازدياد الربح تزداد الغيرة في البذل ، وهكذا تدور الخدمة في حلقة الذات المفرغة . وهنا يبدو لنا ضرورة المثل الأعلى الذي يضبط الحب الباذل ، أي هدف الخدمة ، و يصححه أولاً بأول .

٢ ــ المثل الأعلى :

يمكن أن يكون للخادم أمثلة كثيرة للبذل في الخدمة يحقق بها ذاته و يزكيها . فهو يمكن أن يكون كبولس الرسول الذي خسر كل شيء وحسب كل شيء نفاية من أجل المسيح وخدمته ، ويمكن أن يكون كاستفانوس الذي سلم الجسد للرجم ثمناً للنطق بالحق والشهادة للمسيح ، ويمكن أن يكون كأثناسيوس الذي وقف ضد العالم كله ليحفظ وديعة الإيمان إلى النفس الأخير. وهكذا أمثلة لا حصر لها ، وهذه الأمثلة كلها تشجعنا جداً وتلهب إرادتنا وتجمع عواطفنا وتدفعنا للعمل في الخدمة بلا كلل ، ولكن نخاف لئلا يحدث أن النفس تتحول خلسة من النظر إلى بذل هؤلاء الرسل والشهداء و بقية الخدام المشهورين إلى النظر لشهرتهم وصيتهم الحسن ، فتتحول الخدمة إلى

استعراض قدرات للفوز بتقليد هؤلاء الأبطال لإكتساب شهرة كشهرتهم وصيتاً كصيتهم ، لأجل هذا قال بولس الرسول : « كونوا مُتمثِّلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح » (١ كو١١ : ١)، أي : إن أردتم أن تتشبهوا بي ، فانظروا كيف تشبهت أنا بالمسيح ...

لذلك ، فلا مفر أمامنا من البحث عن مثل أعلى لا نستطيع أن نحقق من ورائه أي تثبيت جديد لذواتنا ، بل يكون مجرد التشبه به موتاً لذواتنا ، فماذا يكون هذا المثل إلا يسوع المسيح ؟ هذا هو وحده الذي إن عاش فينا حقاً متنا نحن عن ذواتنا بالحقيقة !! « أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ » (غل٢ : ٢٠). لذلك جيد للخادم أن يعيش فيه يسوع المسيح ، في فكره ، في قلبه ، في روحه ، في أعضائه ، كمثله الأعلى في الخدمة ، في البذل ، في الحب المجاني ، لأن المسيح مثل واضح غاية الوضوح للخدمة وللبذل الذي بدون منفعة شخصية :

+ أنظره وهو يجول يصنع خيراً ، والكل يتزاحم حوله و يقبّل يديه ورجليه وثوبه ، وهو منهمك في عمل الرحمة بدافع المحبة الخالصة ، غير ملتفت إلى نفسه بل ملتفتاً إلى الصليب الذي وُضع له في نهاية طريق الخدمة كإكليل حقيقي ...
+ أنظره وهو يتحدث إلى تلاميذه بكل حب وإشفاق ، ويهوذا جالس في وسطهم والرب ينظر إليه ويحدثه هو أيضاً بنفس الحب والإشفاق ، غير ملتفت إلى يوم الخيانة أو قُبلة التسليم أو صُرة الثلاثين من الفضة ؟
+ أنظره وهو يمرق من وسط المعجبين بكلامه وأعماله و يتحاشى الأيدي الممتدة لتمسكه وتجعله ملكاً ، لأنه للموت جاء لا للجلوس على كراسي المُلك والعظمة ؟
+ أنظره وهو مهان ومذلول ، مضروب مُعرّى ، حاملاً صليبه إلى مكان الصلب ليكمل إرادة المحبة والآب الذي أرسله ؟

لا يمكن أن يكون لنا مثل للخدمة والبذل والحب وطاعة الله إلا المسيح يسوع ربنا ... إنه وحده المثل الكفيل بأن يمتص كل ما فينا من ذات نفعية وغرور وطموح كاذب ...

وإن كان أي مثل أعلى يحبه الإنسان و يُخلص له كفيلاً أن ينشّط الإرادة و يسيطر على فكر الإنسان و يدفعه للعمل باجتهاد ، فالمثل الأعلى للخادم ـــ وهو يسوع

المسيح نفسه وقد انطبعت صورة وجهه المكلل بإكليل الشوك في القلب على الدوام ــ كفيل أن يلهب الإرادة بالغيرة كالنار ، فلا يعود الخادم يعرف لنفسه حدوداً في الحب أو البذل ، وتصير عنده أصعب الخدمات وأشقاها سهلة لذيذة يجترىء عليها ، حتى ولو كانت ضد طبيعته ، حتى ولو كَمَنَ الموت فيها ...

لذلك فإن كان المثل الأعلى ضرورة لتنبيه الإرادة عند أي إنسان يجاهد من أجل الوصول إلى هدف معين ، فيسوع المسيح كمثل أعلى بالنسبة للخادم يُعتبر ضرورة حتمية لضمان حفظ الإرادة متقدة نشيطة طاهرة من عيب الذات لتكميل الهدف الموضوع أمامه ...

كذلك فإن كان غياب المثل الأعلى عن عين أي نفس كفيلاً أن يطفىء حرارة الإرادة في السعي وراء الهدف ، فغياب يسوع المسيح عن عين الخادم كفيل أن يحل الإرادة من الهدف المقدس ، وحينئذ يعطي الفرصة للأهواء والنزوات والإنفعالات أن تسود وتتحكم في الإرادة وفي التصرفات جميعاً ...

إذن فربط الهدف في الخدمة وهو **البذل** بيسوع المسيح **كمثل أعلى** ، يعتبر الحجر الأساسي في بناء نفسية الخادم وأكبر ضمان لحفظ الإرادة في أعلى كفاءتها .

٣ ــ الإرادة النشيطة :

الإرادة وجودها مربوط دائماً بوجود الهدف ، ونشاطها رهن بوضوح المثل الأعلى في القلب من حين لآخر . فإذا كان هدف الخدمة أي المحبة الباذلة واضحاً ومحبوباً لدى الخادم ، وإذا كان المثل الأعلى للمحبة الباذلة وهو شخص يسوع المسيح واضحاً ومحبوباً أيضاً ، فإن الإرادة تكون متنبهة دائماً وفي حالة تحفز ونشاط وقوة .

وهكذا إذا بدا على إرادة الخادم أعراض من الضعف والإنحلال ، فينبغي في الحال مراجعة أصالة الهدف وصدق المثل الأعلى ، لكي يتحقق أن المحبة والبذل هما فعلاً هدف الخدمة عنده وأن يسوع المسيح مثله الأعلى الحقيقي .

أما ضعف الإرادة عند الخادم ، فهو يكشف عن عدم وضوح رؤية المثل الأعلى أي

المسيح . وأما انحلال الإرادة فإنه يكشف عن ضياع الهدف بأكمله ... أي زوال محبة البذل . في حين أن الإرادة القوية تكون برهان وجود هدف واضح ومثل أعلى محبوب . فالخادم ذو الإرادة القوية هو الذي صمم بالفرح على البذل والمحبة مهما كانت الظروف المعاكسة ، ووضع المسيح أمام عينيه كمثل أعلى لا يحيد عنه .

ومعروف أن الإرادة تتبعها العواطف وتلتحم بها ، فالإرادة في حد ذاتها كأم ، والعواطف كأولاد لها ، فإذا كانت الأم قوية ونشيطة فإنها تتحكم في أولادها ، هكذا الإرادة القوية النشيطة فإنها تتحكم في عواطف الإنسان وتجمعها كلها تحت سيطرتها لتعمل وتجاهد بها . أما الإرادة الضعيفة فإن العواطف تفلت من زمامها لتسوق الإرادة والإنسان كله كيفما تشاء . لذلك فالقوة التي نستمدها لإرادتنا في الخدمة من تثبيت الهدف على المثل الأعلى الذي نحبه ، وهو المسيح ، تجعلنا نتسيطر على عواطفنا ونوجهها كلها لحساب الهدف أي محبة البذل ، كرامة وحباً لمثلنا الأعلى الذي نعيش له ونقتفي آثاره .

ومعروف أيضاً أن الإرادة هي التي تسيطر ، لا على الخدمة فقط ، بل على كل أمور الحياة العادية . لذلك كلما وجهنا عنايتنا للإرادة ، كان ذلك بمثابة تقوية شاملة لبنيان الشخصية وزيادة كفاءتها في مواجهة أعباء الحياة كلها وبالتالي الخدمة . وينبغي أن نعلم أن الإرادة ليست شيئاً له وجود في حد ذاته ، ولكنها محصلة العواطف والدوافع المهذبة والمقبولة عند الإنسان ، لكن ضد الإرادة تقف الخبرات المؤلمة والعواطف والدوافع الغريزية غير المهذبة وغير المقبولة التي رفضها الإنسان أو أهملها ، وهي كلها يسميها العلماء « بالعقد المكبوتة » ، وهذه تقف خلف الإرادة وتقاومها وتضعفها وتطفو أحياناً فوق سطحها فتسيء إلى سلوك الإنسان وشخصيته ، ولا يمكن تصفية هذه العقد وتقوية الإرادة إلا بالعمل ، العمل الروحي الصحيح والمتواصل تحت تدبير أب روحي يوجه العمل ويغذي العواطف بالمثل العليا الصحيحة والوعظ المريح للنفس .

٤ ــ العمل الروحي :

لا يوجد في جميع وسائل بنيان شخصية الإنسان وتقوية إرادته مثل العمل ، العمل على وجه العموم وخصوصاً إذا كان مع آخرين ، وعلى مستوى الحركة والنشاط ،

وتحت ملاحظة أب أو مدبر أو رائد ناضج . و بالأكثر جداً إذا كان العمل هو الخدمة الروحية من تعليم وافتقاد وعطف على الآخرين فيكون هذا بحد ذاته أعظم خدمة نقدمها لنفسية الخادم نفسه ، فالخادم الذي يعلّم الآخرين لا حباً في التعليم أو الظهور ولكن عن محبة البذل ، و يفتقد الآخرين لا بإحساس المتفضّل والكبير بل بإحساس المشاركة الوجدانية مع الآخرين ، و يعطف على الضعفاء والمرضى والفقراء لا بدافع الواجب بل بدافع المحبة الروحية التي يستقيها من مثله الأعلى ، فإن هذا العمل الروحي بالنسبة للخادم سوف يعيد بناء شخصيته و يقوي إرادته و يصفي كل عقده وأتعابه النفسية يوماً بعد يوم ، خصوصاً إذا كان الأب الروحي على وعي كامل بدقائق خدمة الخادم وظروفها ومقدار نموه .

والعمل الروحي الذي يقوم به الخادم كل يوم وعلى مدى الأيام كلها ، هو وحده الكفيل أن نقيس بواسطته صحة الهدف الذي وضعه الخادم غاية لحياته الروحية كلها ، ومقدار صدق المثل الأعلى الذي اتخذه لنفسه ومدى قوة الإرادة التي يسيطر بها على عواطفه وانفعالاته .

فمستوى أمانة الخادم في أداء عمله يكشف عن عمق الهدف عنده ، أي عمق المحبة الباذلة .

ومستوى الحرارة والغيرة التي يؤدي بها خدماته ، تكشف عن مدى تمسك الخادم بالمسيح كمثله الأعلى .

ومستوى نشاط الخادم ومثابرته وصبره ورزانته في ممارسة خدماته تكشف عن مقدار سيطرته على إرادته .

ومستوى نمو شخصية الخادم وتقدم بنائه النفسي والروحي يكشف عن صحة وجدية العمل الروحي الذي يقوم به .

* * *

+ وهكذا نجد أن الخادم يكتشف في الخدمة الروحية إمكانياته الروحية والنفسية كلها .

+ وأن كل ضعفات الخادم النفسية بقدر ما تكشفها الخدمة بقدر ما تتولى الخدمة

نفسها إصلاحها وإعادة بنائها .

+ وهكذا فإن بناء الخادم نفسياً لا يتم إلا من داخل الخدمة و بواسطتها ، وإنما كل ما نلحُّ عليه هو المثابرة والرعاية الروحية .



الفصل الرابع

البناء الروحي للخادم

(١)

مقدمة :

نحن لا نعرض هنا للبناء الروحي العام للشخصية المسيحية ، ولكننا نقتصر بنوع مخصوص على بناء الخادم روحياً بالقدر الذي يكفل له المقدرة على بناء الأطفال والشباب .

لذلك فنحن نفترض هنا أن أمامنا مجموعة من الخدام متباينة الإستعدادات والكفاءات والمواهب الروحية نريد أن نبنيها روحياً .

فما هي الخطوط الروحية الأساسية التي تحدد الإطار العام للمناهج اللازمة لتدريس ورعاية هؤلاء الشبان ليصبحوا خداماً روحيين ؟

ينبغي هنا أن نعلم يقيناً أن « الروحانية المسيحية » حسب منطق التقليد الأرثوذكسي ليست شيئاً يُكتسب بالإجتهاد الشخصي ، أو بمجرد دراسة الكتاب المقدس والتأمل في آياته ورواياته ، وتصفُّح بعض الكتب الروحية ؛ ولكن الروحانية المسيحية في المفهوم الأرثوذكسي هي تقليد تسليمي يشمل :

أولاً : « الحياة النسكية » : بصلواتها المقررة ، **وأصوامها** الرسمية ، وممارسة العبادة والإشتراك في الأسرار داخل الكنيسة في مواعيدها المحددة ومواسمها أولاً بأول بكل دقة وانتظام .

ثانياً : ثم يلي بعد ذلك : **التمكن من العقيدة** التي تلقن الشخص ما ينبغي أن يؤمن

به و يتمسك به قلبياً تمسكاً لا يزعزعه أي شك أو إرهاب حتى الموت .

ثالثاً : التبحر أولاً بأول في **أصول السلوك المسيحي** ، أي ما ينبغي أن يُقال و يُعمل ، وما لا ينبغي أن يُقال أو يُعمل . حيث يتربى الضمير على أصول التقليد الأبوي كما عاشته الكنيسة الأرثوذكسية على ممر العصور .

رابعاً : تكوين **علاقات روحية خالصة** مع الرب يسوع مفعمة بالمحبة حيث يدخل الشخص في اختبارات روحية خاصة مع الله تز يده حرارة واستنارة وتمييزاً (إفرازاً) .

وليلاحظ القارىء أهمية ترتيب هذه العناصر الأساسية في البناء الروحي :

١ ــ فالحياة النسكية تأتي في المقدمة بالنسبة للبناء الروحي ، وهنا لا نقصد من كلمة « النسك » التخصص الكلي على مستوى الرهبان والمتوحدين ، ولكن نقصد به **العمل الروحي بوجه عام** ، كالصلاة والصوم و بقية أعمال العبادة وهذه هي بدء كل بداية .

٢ ــ ولكي يكون العمل الروحي صحيحاً ، يلزم أن تغذيه العقيدة الأرثوذكسية أولاً بأول . لذلك تأتي الدراسات العقائدية في التسليم التقليدي كسند دائم للعمل النسكي حتى تجنبه الإنحرافات .

٣ ــ ولأن الخادم هو أكثر الناس اتصالاً بالآخر ين حيث تكون علاقاته وتصرفاته وسلوكه جزءً هاماً في وظيفته الروحية ، لزم أن يكون متبحراً في أصول السلوك المسيحي ، يفرّق بتلقائية روحية بين ما يليق وما لا يليق قولاً وعملاً .

٤ ــ ولأن الخدمة الروحية ليست مهنة تدر يس بل فيض روحي ، والفيض الروحي يحتاج إلى ملء مستمر ، لزم أن تكون حياة الخادم ذات خبرات روحية دسمة متجددة باستمرار .

أما الغاية النهائية التي تر بط معاً هذه العوامل الأر بعة للبناء الروحي بالنسبة للخادم فهي أن يكون إنساناً كاملاً في المسيح .

الفصل الخامس

البناء الروحي للخادم

(٢)

أولاً : العمل النسكي

المسيحي بوجه عام هو إنسان ناسك يحب الصلاة ، و يفرح بالأصوام و يبتهج بالعبادة . أما الخادم فهو إنسان يسعى نحو الكمال المسيحي ، لذلك فاشتياقه الدائم هو أن يجعل من وصايا الرب يسوع قانوناً لحياته يضبط به نفسه وكل مشتهياته فكل ما يحبه المسيح يصبح غاية سعادته .

الصلاة :

الصلاة عند الخادم بوصفها عملاً نسكياً تفوق وضعها كفرض أو كواجب لتصبح غذاءً يومياً . فهي قمة الأعمال النسكية التي يفرّغ فيها الخادم كل طاقاته ، لأن من خلال الصلاة يخلق الله للخادم قلباً جديداً و بواسطتها تستقيم روحه فيه وتستقر في الله ليصبح الله ، بواسطة الصلاة ، مصدر راحة وسلام أبدي .

الصلاة النسكية عمل روحي خلاق ، يخلق على طول المدى مواهب وقدرات لم تكن من طبيعة الإنسان بل ولم تكن تخطر له على بال . والصلاة النسكية اصطلاح أرثوذكسي يقصد به الصلاة التي تؤازرها الأصوام والعبادة داخل الكنيسة .

وأعظم أعمال الصلاة النسكية التي لا يمكن أن تقارَن بأي شيء آخر، هي التي بواسطتها يستطيع الخادم الأمين المخلص أن يدخل في حياة عشرة مع الله بواسطة الروح القدس ، حيث يبلغ الخادم هنا نهاية أمله ورجائه ، إذ يصبح منقاداً بروح الله ، حتى

أن كل ما يصنع ينجح فيه .

و بينما تكون الصلاة العادية قادرة أن تنفخ في الإنسان العادي روح الرجاء وقت الشدة ، نجد أن الصلاة النسكية المؤازرة بالصوم والعبادة قادرة أن ترفع طبيعة التفكير والتدبير لدى الخادم إلى مستوى الإلهام والثقة الدائمة في الله بصورة إعجازية ... وهنا يكفي أن نقول ـــ في سر ـــ أن الصلاة النسكية هي دائماً مصدر قوة وروحانية ، فلا عجب إن وضعناها كأساس أول راسخ في البناء الروحي .

وليس المجال هنا متسعاً لشرح أصول الصلاة النسكية وقوانينها . ولكن نكتفي بأن نلفت النظر إلى ضرورة اتباع قانون الصلاة البسيط الذي يلتزم به العلماني الورع ، وهو الصلاة ثلاث مرات في الأربع والعشرين ساعة ، أي في باكر عند اليقظة من النوم مباشرة وفي المساء قبل النوم ، وفي نصف الليل (قبل الفجر) حسب ما هو مدون بالأجبية . وما زاد على ذلك فهو فضل من الله ونعمته .

والصلاة الحقيقية تكون بتوسل وقرع صدر واستعداد دائم للسجود والإنجيل مفتوح ، لتمزج القراءة بالصلاة والتشجع بمواعيد الله . والمزمور تقوله من القلب وليس من الشفتين . وتفسح المجال في كل صلاة لعرض توسلات النفس . والخادم محتاج جداً أن يحول أياماً برمتها للصلاة و يقضي ليالي بأكملها في الصلاة والتسبيح .

الصوم :

الصوم عمل نسكي ، و بالنسبة للخادم يكون بمثابة القوة الدافعة التي تؤمّن له كل جهاد ، فالصوم يزكي الصلاة ، يضبط القلب إزاء الشهوات ، يضبط النفس إزاء الإنفعالات ، يضبط الفكر إزاء التشتت والإضطراب ، و يضبط اللسان و يقوده إلى الرزانة .

الصوم سلاح روحي فعّال لقمع الطبيعة وتهذيب الحواس . وكل الذين أتقنوا استخدام هذا السلاح برعوا في ضبط أنفسهم فانطبع على جبينهم سمة الروحانيين .

الخادم الصوّام يعبر على فخاخ الشيطان ، من عثرات وأتعاب وضيقات ، بخفة

كـمـن لـه جنـاحان . وتؤهله أصوامه للدخول في أسرار الروح والتعمق فيها حتى يشرق عـليه نور المسيح ، فتتربى عنده حاسة المعرفة والتدبير والتمييز، التي هي رأس مال الرجل الروحاني وقمة النعم .

ولـيـس المجـال هنا لشرح أصول الصوم النسكي ودرجاته وفترات انقطاعه ، ولكن يـكفي أن نـشير على الخـادم مـبـدئـيـاً أن يـلـتصق بقوانين الكنيسة والتمسك بها من جهة الأصـوام وترتيبها ، على أن لا يستثقل كثرة الصوم ، فالصوم هو العملة السمائية الصعبة التي إذا حـصـلنا عليها استطعنا أن نقتني ـــ بالإمتناع عن الأطعمة والملذات الأرضية ـــ قوة روحانية واضحة سماو ية ، و بقدر ما نصوم نسمو...

وإن كـانـت الـصـلاة جُـعـلـت في الأسـاس ، فالصوم بالنسبة لها قوة التسليح التي سـوف تجـعـل الـبـنـاء الـروحـي يحـتـمـل كل أثقاله ... والخادم محتاج إلى أصوام خاصة يفرضها عليه أبوه الروحي ليعجم عوده .

الإشتراك في العبادة :

الخـادم لا يحضر الـصـلاة مجـرد حـضـور، ولـكنه يشترك فيها ، فالخادم مفروض أنه شماس . والشمـاس مسئول عن إقامة كل الصلوات في الكنيسة ، يعدُّ لها و يرتبها ، فهو لا يمـارس الـصـلـوات الـطـقـسـية لنفسه فحسب بل هو مسئول عن تقديمها للآخر ين . فـالـعـبـادة بـالـنسبة للخادم هي ملء و بذل بآن واحد ، يأخذها و يعطيها . فهي بذلك عـمل روحي نسكي كثير المنفعة يبني روح الخادم على أساس أنه بقدر ما يأخذ يعطي ، و بقدر ما يمتلىء يفيض ، و بقدر ما يتعزى يعزي الآخر ين .

الخـادم يقف شر يكاً في كل صلوات الكنيسة ، مقدّماً نفسه الخاشعة لكل الشبان الذين يخدمهم نموذجاً حياً رائعاً لكيفية العبادة والخشوع والإقتراب إلى الله .

وفي لحـظـات الـصـلاة والـعـبـادة والخشوع والتقرب إلى الله يبلغ التعليم المسيحي ، بمقتضى التقليد الأرثوذكسي ، قمة أصالته وصدقه ، حيث يكون الخادم والمخدوم ، المعلم والـتـلـمـيـذ ، كـلاهما على مستوى واحد من الأخذ ، البناء الروحي هنا بناء من الله ، فـالـمـعـلـم والـتـلـميذ كلاهما يتقبلان بناءً سر ياً ، المعلم يظهر كأنه يبني تلاميذه وهو في

صميم واقعه يبنيه الله... الكل هنا يُبنى من الله بمؤازرة ورُبُط سرية ، كبناء واحد ينمو هيكلاً روحياً !!

لذلك يُعتبر اشتراك الخادم في العبادات الطقسية بمواسمها المختلفة عملاً روحياً بالغ القيمة لنفسه وللخدمة ، إذ يأتي مكمّلاً لصلاة الخادم الخاصة فيجعل من حياة الخادم الداخلية صورة مضيئة علنية ، يرى فيها تلاميذه ومريدوه نوراً يمجدون الله بسببه .

الخادم محتاج أن يتعلم على يد مرتل الكنيسة أو شماسها كل أصول الخدمة وتسابيحها .

التجرد :

المسيحي عموماً إنسان يرى أن أية خسارة تعرض له في سبيل أمانته للمسيح ، تُعتبر ربحاً . أما الخادم فهو أكثر جرأة ، لأنه يُقْدم على الخسارة بإرادته ليزداد ربحه ، يتنازل عن راحته باختياره و يضحي بالأجر الإضافي والربح الزائد ليقضي وقته في الخدمة ، يثابر بالتقوى لحساب ربح الآخرين الروحي .

العالم في نظر الخادم يفقد شكله الساحر المملوء إغراءات وغوايات ، لأنه من خلال صلاته وأصوامه ومواظبته على العبادة في الكنيسة تتربى فيه عين روحانية فاحصة تميز بين الباطل والحق ، لذلك فعندما يعرض عليه العالم أمجاده وغواياته ، لا تجد عنده قبولاً ، لأن كنز قلبه يكون قد استقر في الروحيات . فهو يكتفي من العالم بما يكفل له حياة الكفاف ، لأن سعادة قلبه لم تعد في اقتناء الأخشاب والأقمشة الملونة والتحف ووسائل المسرات والملذات ، بل في اقتناء الروح مصدر السعادة الحقيقية للنفس .

+ المال ذلك السيد الساحر الذي سلب لب الدنيا بأسرها وطوح بهامات الجبابرة ليس له في قلب خادم المسيح إقامة ، بل وليس سيداً على الإطلاق ، هو خادم حاجات فقط يأتي ليعبر ، ولا يُطلب إلا عند الضرورة . إذا إزداد رصيده كان ذلك إشارة من الروح لزيادة الخدمة ، وعندما ينضب تماماً تحل مكانه النعمة .

الخادم المبتدىء يطالب بالعشور وهو يعطيها باحتراس وتقتير ، فإذا تحركت النعمة

في أحشائه لا يستطيع أحد أن يقنعه بالكف عن العطاء فهو لا يرتاح طالما كان عنده ما يمكن أن يعطيه ، و يظل يعطي و يعطي مما له حتى يستقر أخيراً، على أنه لن يستريح حتى يعطي نفسه بكل ما لها ... فالمال الذي محبته أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة ، يصبح للخادم الأمين باباً مفتوحاً للتقرب إلى الله وخبرة حية للدخول في أعماق الإيمان والإحساس بالتوكل على النعمة ، وتدريباً متواصلاً على مقايضة الملكوت بالقروش والجنيهات .

+ المسرات الدنيوية وأدوات الملاهي التي أصبحت من أعواز إنسان العصر الحديث الذي يتباهى بالإنفاق عليها حتى إلى نصف مرتبه ، إذ يجد فيها عزاءه الوحيد وتسليته وراحة نفسه ، هي بالنسبة للخادم مصدر القلق النفسي ، ومضيعة للوقت ، وإتلافاً للصحة والمال ، وإفساداً للصلاة وللمزاج الروحي عموماً ، وتبديداً لطاقة التوبة أولاً بأول .

عزاء الخادم في صلاته ، تسليته في قراءاته الدسمة المنعشة ، راحة نفسه في إعترافه ، مسرته الكبيرة في حصاده اليومي لثمر جهوده في الخدمة والإفتقاد .

+ الشهرة والكرامات والصيت الحسن ، التي طالما استعبدت النفوس وجعلتها تنفق الأموال والجهود وتسهر وتتذلل وترشي وتلحس التراب ، هي بالنسبة للخادم إنما يكمن فيها ضلالة وخطر، وانهزام قد لا يكون فيه قيام . لذلك تتحاشاها النفس الحريصة بقدر قوتها ، وتتحايل للتخلص من فخاخها ، لأنها ترى فيها ثقلاً كفيلاً أن يغرق مركب النفس في مسيرتها الحرجة المحفوفة بالمخاطر إذا لم تنتبه إلى موازنته بالتذلل والمحقرة ، لذلك فالخادم الحاذق يتدرب كل يوم كيف يتخلص من هذه الأثقال الباهظة و يلقيها من مركب حياته كبضاعة مدسوسة تالفة عديمة القيمة في مجال التقوى ، وفن التجارة الروحية.

+ الهوى والعواطف والشهوات الجنسية ، التي هي بالنسبة للعالم القوة المحركة لكل الملذات وأطماع الناس وطموحهم والمركز الطبيعي لنشاطات النفس والسر المخفي وراء كثير من الصراعات في الأسر والجماعات والشعوب والحروب ، هي بالنسبة للخادم

بخور يحرقه على مذبح الحب الإلهي ، طاقة اشتعال نفساني لا يهبط إلى مستوى الجسد ليشعل بها أعضاءه فيبدد حرارتها في لذة حسية ، بل يسموبها إلى مستوى الروح فيحولها إلى لهيب روحي لتجديد الذهن وإضاءة طريق الحياة والخلود .

الخادم الروحاني تاجر لا يكف عن المقايضة ، ليحول كل ما تصل إليه يداه من الجسديات إلى الروحيات . فالهوى الطبيعي الذي يُحسب أقوى من الطاقات العاطفية في الإنسان التي تجمع الأجساد وتوحدها ، إذا ما وضع عليه الخادم الروحاني يديه وملك زمامه ، حوّله إلى طاقة محبة روحانية عالية تؤلف بين نفسه والله ثم بين نفسه وكل إنسان ، كعاشق عنيد لا يرتاح إلا في جذب النفوس إلى شبكة حب المسيح التي جذبته !! « ... خطبتكم لرجل واحد لأقدم عذراء عفيفة للمسيح ... » (٢كو١١ : ٢) .

ولكن لأن الهوى الجسدي مغروس غرساً طبيعياً في الأعضاء والفكر وهو لا يكف عن أن يجذب إنتباه الإنسان بإلحاح إلى حاجة الطبيعة ، أصبح من المحتم على الإنسان الروحاني أن يجاهد بالعمل النسكي ليحول هذا الإلحاح عن مجراه الطبيعي إلى ما هو فوق الطبيعي . لذلك فهو وإن ابتدأ جهاده مع العاطفة سلبياً ، إلا أنه يبلغ بها في النهاية إلى منتهى الإيجابية حينما يسموبها إلى مستوى المحبة المنزهة عن اللذة الحسية والأنانية ... حينما يبلغ بالنفوس إلى مستوى حضن المسيح « خطبتكم لرجل واحد » !!

خادم المسيح حينما يتحرر من عبودية العواطف التي تعمل على مستوى اللحم والدم ويدخل في حرية الروح التي تغذيها المحبة الإلهية يصبح صياداً حاذقاً للناس ، ويُستأمن على شبكة المسيح التي يطرحها بمهارة على النفوس ويجذبها بمكر روحاني ليفرغها كل يوم في حضن المسيح .

ولكن الخادم الذي لم يفرغ قلبه من هوى النفوس ويحرر نفسه من شهوة اللحم والدم فهو يصطاد لنفسه وليس للمسيح ، ويبدد رصيده أولاً بأول .

لذلك فالعمل النسكي بالنسبة للإعلاء بالهوى الجنسي ، هو رأس مال الخادم بصفته صياداً يصطاد لحساب آخر...

لذلك تظل العواطف والإنفعالات الجنسية تهدد خدمة الخادم لتصبغها بالصبغة الجسدانية ، بل وتجعل خدمته قريبة من الخطيئة ، إلى أن يدخل في لهيب حب المسيح الذي هو وحده كفيل أن يحرق رباطاتها ، فتنحل الشهوة من ذاتها ليدخل الجسد في راحة الروح وتستنير النفس بطهارة المسيح .

ولا توجد وسيلة للدخول في لهيب حب المسيح إلا بالتدرج المتواصل في العمل النسكي بالصلاة ، بالصوم ، بالعبادة ، بالتجرد من شهوة الإقتناء ، من شهوة المال ، من شهوة الملاهي ، من شهوة الكرامات !

□ □ □

وإذ نأتي إلى ختام العمل النسكي نعود فنكرر ضرورة الربط التدريجي بين مقوماته . إذ لا يمكن أن يبدأ الخادم بالجهاد ضد انفعالاته الجنسية وهو لا يواظب على الصلاة ، ثم أن الصلاة بدون الصوم تتبدد قوتها ، ولكي يصبح الصوم قوة لابد من مؤازرة النعمة ، والنعمة لا يُحصل عليها بدون المواظبة على العبادة والإشتراك في الأسرار ، والتجرد هو بمثابة خلع الأسلحة الجسدية التي يحارب بها الجسد ضد الروح ، وحينما يتجرد الجسد من أسلحته تتهيأ الروح بالضرورة لقبول أسلحة الروح القادرة أن تدك حصون العدو ، «إذ أسلحة محاربتنا ليست جسدية بل قادرة بالله على هدم حصون» (٢كو١٠ : ٤) .

الفصل السادس

البناء الروحي للخادم

(٣)

ثانياً : بناء عقيدة الخادم

البناء النسكي للخادم كما قدمناه في الفصل السابق يهتم بتكوين المزاج الروحي المناسب للخادم ، غير أن هذا البناء لا يمكن وضع قوانين محددة عامة له يخضع لها الجميع لينمو الكل نمواً موحداً ، لذلك نجد أن المزاج الروحي يتفاوت من خادم إلى خادم ، من جهة :

أولاً : القدرة على التعمق في الصلاة واكتساب بصيرة التأمل ،

ثانياً : الصبر والمداومة على الصوم و بلوغ درجات من الشفافية الروحية ،

ثالثاً : النشاط والغيرة في العبادة داخل الكنيسة والوصول إلى درجة الإلتحام بالطقس روحياً ،

رابعاً : التوفر على التجرد وضبط الأهواء والشهوات والعواطف للسلوك بالروح تحت قيادة الروح القدس .

لذلك يجيء البناء العقائدي للخادم كضرورة حتمية لإرساء البناء النسكي على قواعد لاهوتية عامة ثابتة موحدة ، ولتأمين النسك ضد أي انحراف أو نظرات خاصة ، بحيث لا يصبح التفاوت في المزاج النسكي سبباً في الإنقسامات بين الخدام ، الذي يؤدي بالتالي إلى بلبلة الخدمة وتشيُّع الشبان لهذا الخادم أو ذاك .

فإن كان البناء النسكي يهتم بنمو الفرد في علاقاته بالله ، فالبناء العقائدي يهتم بأن يجعل هذا النمو الفردي داخلاً ضمن إطار نمو عام ثابت للجماعة أي الكنيسة على مدى

العصور كلها حتى النهاية .

والآن لا يتسع لنا المجال هنا لتقديم منهاج للعقيدة المسيحية التي ينبغي أن يُبنى عليها المزاج اللاهوتي للإنسان المسيحي بوجه عام ، فهذا نتركه للدراسات المدرسية والكتب اللاهوتية ، وإنما نحدد أنفسنا في هذا المقال بالنسبة للسمات الأرثوذكسية الخاصة في العقيدة المسيحية التي ينبغي أن يتسم بها الخادم الأرثوذكسي في الكنيسة القبطية .

السمات الأساسية للعقيدة الأرثوذكسية

أولاً : التمسك بأصول التعاليم الآبائية الأولى

تعتبر الكنيسة الأرثوذكسية هي الوحيدة بين الكنائس ــ سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية ــ التي لا تزال تتمسك بالمعايير الآبائية للكنيسة الأولى بوصفها المعايير الصحيحة التي لها العصمة والإحترام والحق والقول الفصل .

فكما كانت تصلي الكنيسة الأولى وكما كان يصلي الآباء الأُول ، ينبغي و يتحتم أن نصلي الآن بلا اختصار أو تعديل . وإن كان ولابد أن يكون هناك اختصار أو تعديل لما وصل إلينا من صلوات زادت على مر الأيام فيتحتم أن يكون التعديل وفق التقليد القديم كما هو مدون في كتابات الآباء وصلواتهم . وما يقال في الصلاة يقال في الصوم والعبادة وممارسات التجرد .

فالروح الأرثوذكسية محافظة أشد الحفظ على التقليد بكافة فروعه وأنواعه ، وهي تجزع أشد الجزع من الخروج على القاعدة العقائدية التي كانت متبعة لدى الآباء ، فهي في نظرها الحق كل الحق وكل ما عداها تخريج بشري . فأي مجادلة أو نقاش أو نزاع في فهم أي نقطة من نقاط العقيدة مرجعه النهائي إلى أقوال الآباء الأول ، فبمجرد بروز رأي متفق عليه لأنطونيوس أو أثناسيوس أو كيرلس أو من قبلهم أو من بعدهم من مشاهير النساك القديسين واللاهوتيين كفيل بأن ينهي على كل نزاع .

وإزاء هذه الدعامة الهامة في الفكر اللاهوتي الأرثوذكسي أصبح مستحيلاً لأي مجمع أو سلطة كنسية أو شخصية معاصرة أن تعدل أو تنسخ من التقليد الآبائي السائد والمتبع .

لذلك أصبحت هذه السمة اللاهوتية قوة أرثوذكسية قادرة أن تصالح وترفع الخلافات وتجمع وجهات النظر وتقنن كل منهج وتقيّم كل سلوك !...

لذلك كان من أهم المبادىء التي ينبغي أن نرسخها في ذهن الخادم وقلبه ، أن يجعل معاييره الإيمانية كلها في كافة أنواع نشاطه الروحي قائمة على أساس تعاليم الرسل والآباء .

وهذا بالتالي يحتم على الخادم أن يكون شديد الشغف بدراسة أقوال الآباء ، متعمقاً في فهم مبادئهم وأعمالهم ونسكياتهم .

ولكن يجدر الإشارة هنا إلى أن التمسك بالتقليد الآبائي لا يعني الجمود والتمسك بالشكليات ، ولكن يعني الإلتصاق بالخبرات الإيمانية الحية القوية التي عاشها الآباء ونجحوا في توريثها للكنيسة .

ثانياً : التوازن بين العنصر الإنساني والعنصر الإلهي :

والتوازن في الأرثوذكسية بين العنصر الإنساني والعنصر الإلهي يكاد يكون صفة عامة في كل نواحي الحياة العملية والفكرية وليس في العقيدة فقط . فبينما نجد في الكاثوليكية يبرز الضغط على العنصر الإنساني في الجهاد والخلاص والشفاعة وفي كل شيء حتى التجسد ، نجد في البروتستانتية العكس حيث يبرز الضغط بشدة على العنصر الإلهي في كل شيء ، فالخلاص مثلاً يكاد يكون بلا أي جهاد إذ يعتمد في كلياته وجزئياته على المبادرة الإلهية والتأمين الإلهي ولا وجود لشفاعة على الإطلاق...

بينما في الأرثوذكسية نجد التوازن يبلغ منتهى الحذر والتعقل بين ما هو إنساني وما هو إلهي ، فالتوافق والعمل المشترك ووحدة الحركة بين العنصر الإنساني والعنصر الإلهي ضرورة حتمية في كل شيء ، في الإيمان والجهاد والنمو والتجديد والخلاص والشفاعة .

هذه هي الدعامة الثانية للأرثوذكسية التي ينبغي أن نبني عليها العقيدة والإيمان والنسك والسلوك وكل شيء... فإذا انتبه لها وجدان الإنسان الروحي وآمن بها والتزم بوزنها الدقيق، فانه لن تزل قدماه أبداً بل ولن يزل عقله أو لسانه.

فالله معنا ما دمنا معه، موجود عند الذين يطلبونه، إن تركناه يتركنا، وإن بكرنا إليه نجده، إن كرمناه يكرمنا، وإن احتقرناه نصغر.

والمسيح واقف على الباب يقرع، إن فتحنا له يدخل، وإن نعسنا وتغافلنا عنه يعبر عنا. إن سألناه يعطينا ما نريد، وإذا لم نسأله لا يعطينا شيئاً. إن طلبناه وجدناه في الحال، وإذا لم نطلبه فهيهات أن نجده. إذا قرعنا باب رحمته يفتح دائماً، وإذا جئنا إليه من ضلالتنا فيستحيل أن يُخرجنا خارجاً. إذا جددنا ذهننا بالكلمة الحية كل يوم وكل ساعة وعلى الدوام، يتغير شكلنا ليصير على شبه المسيح في القداسة والحق بفعل نعمته خفياً و بالروح القدس. إذا قبلنا سيرة القديسين وشفاعة الآباء والأنبياء وتمثّلنا بهم ودعونا بإسمهم، قبلنا عمل الله فيهم ونلنا نعمة الله التي كانت معهم، لأن منْ قَبِلَ نبياً باسم نبي فأجر نبي يأخذ، و« أرواح الأنبياء خاضعة للأنبياء » (١كو١٤: ٣٢) كما يقول الكتاب. هنا التوازن بين السعي البشري والإستجابة الإلهية يكاد يكون على درجة من الدقة ينذهل لها العقل.

كذلك في النسك وفي السلوك، فبقدر الجهاد تكون النعمة، إذ يستحيل أن يحصل الإنسان على أية موهبة أو فضيلة أو حتى صفة روحية إلا إذا جاهد الإنسان و بلغ في جهاده حد الإيمان الكامل والثقة المطلقة في أنه لا شيء إلا بنعمة الله « أنا ما أنا... ولكن لا أنا بل نعمة الله التي معي » (١كو١٥: ١٠).

ومن الناحية الأخرى نجد أن الإنسان حتى ولو بلغ في الموهبة وفي الروح إلى حد الرسولية وتغافل عن ضبط جسده وجاهد حتى الدم ضد الخطيئة وناموسها الرابض في الجسد، فهو حتماً ساقط من درجته، أو كما يقول بولس الرسول أنه يصير « مرفوضاً »: « بل أقمع جسدي وأستعبده حتى بعدما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً » (١كو٩: ٢٧). هنا الجهاد يبدو وكأنه يؤمّن عمل النعمة وهذا مذهل أيضاً للعقل!... وحتى السلوك اليومي في كافة الأعمال الكبيرة والصغيرة الجسدية والروحية، إذا لم

يكن اجتهادنا ونشاطنا وسهرنا وانتباهنا مؤازراً بالنعمة ومتوازناً معها فالعثرات ستلاحقنا والسقوط يظل يتهددنا ، إلى أن نصحح الميزان بين الجهد المبذول والإعتماد على الله !...

والمفروض أن هذا التوازن بين ما هو بشري وما هو إلهي لا يقتصر على الأعمال فقط بل و يلزم أن يتعدى ذلك إلى أعماق الوجدان نفسه ، فالإحساس بالخطيئة هو الذي يؤهلنا للإحساس بالنعمة ، فبقدر ما نتضع وننسحق على خطايانا بقدر ما نرتفع إلى مستوى عزاء النعمة ونسمو إلى مستوى دم المسيح لقبول الصفح والغفران ، كذلك بقدر ما يكون حزننا على سقوطنا يكون حتماً الفرح الآتي إلينا من فوق . فإذا توقف الحزن والانسحاق على الخطيئة عن البلوغ بنا إلى الإحساس بالنعمة والغفران بدم المسيح خرج هذا عن المنهج الأرثوذكسي ، ومن الناحية الأخرى إذا حاولنا أن نبلغ إلى عزاء النعمة وفرح الروح دون أن نحصر أنفسنا بالحزن والندم على ما اقترفناه من خطايا وشرور خرج ذلك أيضاً عن المنهج الأرثوذكسي . فالموازنة الوجدانية بين محصلة الضعف البشري والقوة الإلهية فينا يلزم أن تكون الخلفية الدائمة في كل مراحل حياتنا الوجدانية . فإذا غمرتنا فرحة النصرة والجهاد وبهجة الخلاص ، ينبغي أن لا يغيب عن بالنا قط الليالي السوداء التي عبرناها في غم الخطيئة والندم عليها . وإذا داهمتنا الأحزان وحاصرنا صغر النفس مع اليأس ، فينبغي أن نتذكر أن الشمس خلف السحاب والفرح الإلهي قادم إلينا بالعزاء حتماً ، قادم إلينا من السماء كطائر الحمام ...

ثالثاً : الموازنة بين السلطان الكنسي والحرية الفردية :

هذه السمة الثالثة من سمات العقيدة الأرثوذكسية تعتبر من أبرز العوامل الناجحة في بناء شخصية الإنسان المسيحي بناءً سوياً .

هنا تقف العقيدة الأرثوذكسية موقفاً وسطاً متزناً بين السلطان الكنسي المطلق والمعصوم عند الكاثوليك ، والسلطان الكنسي المنعدم والمذموم عند البروتستانت ، كما تقف أيضاً نفس الموقف الوسط والمتزن بين حرية الفرد المتضائلة التي تكاد تكون معدومة بالنسبة للسلطان الكنسي عند الكاثوليك ، وحرية الفرد الطاغية على السلطان الكنسي عند البروتستانت .

فالسلطان الكنسي في الأرثوذكسية يستمد كيانه وصلاحيته واحترامه بل وقدرته الروحية في التنفيذ على موافقة كل فرد في الكنيسة ، فالعلمانيون كأفراد وكجماعة لهم النسبة العظمى في اختيار وانتخاب وتقديم البطريرك أو الأسقف أو الكاهن أو الشماس للرسامة ، فإذا لم ينطق الشعب كله بحريته واختياره كلمة « أكسيوس » أي « مستحق » للشخص المقدم لأي رتبة كهنوتية فإن رسامته توقف في الحال حتى ولو كان المعترض واحداً فقط من ملايين ، هنا توقف الرسامة إلى أن يتم التحقيق واستطلاع رأي هذا الفرد الواحد ، فإن كان عنده الحجة الكافية ضد المرشح تبطل الرسامة ، وإذا كانت حجته غير صحيحة يقطع هذا المعترض لأنه تسبب في بلبلة الكنيسة .

كذلك فإن أي رئيس في الكنيسة ــ سواء البطريرك أو الأسقف ــ لا يُنظر إليه في الأرثوذكسية أنه يحكم في الكنيسة بتسلط ذاتي بل يرعاها و يدبرها بنعمة الله ، الله هنا هو الحاكم الوحيد والراعي الأعظم والمدبر الحكيم أي الأسقف الحقيقي للنفوس . أما البطريرك أو الأسقف فهو راعي من قِبَل الراعي ، ومدبر من لدن المدبر ، وناظر من تحت الناظر . فالبطريرك أو الأسقف ليست له في الحقيقة رعية خاصة له بل هو يرعى **رعية الله** ، ولا هو يدبر أولاده الخصوصيين بل يدبر **أولاد الله** ، ولا هو ينظر في شئون عبيد له بل ينظر في شئون **عبيد الله** .

الأسقف عموماً لا يترأس من فوق الكنيسة بل من داخلها لا كسيد عليها بل كعضو أول فيها تكرمه باقي الأعضاء ، لأنه لا يعيَّن على الكنيسة كأنه ليس منها بل يعين فيها لأنه أصلاً واحد منها .

والأسقف حينما يحكم و يقطع بكلمة الحق باستقامة لا يحكم ولا يقطع بمقتضى مشورته الخاصة بل بمقتضى قوانين الكنيسة ونواميسها الثابتة المستقرة ، فإذا خرج عنها بطل سلطان حكمه لا في الأرض فقط بل وفي السماء ، وهو في الحقيقة يحكم بسلطان المحبة التي يستمدها من إخلاص رعيته التي استأمنه الله عليها والتي أحبته واستأمنته على أرواحها . فالسلطان الكنسي هنا مستمد من الشعب وعائد إليه . الموازنة هنا بين سلطان الكنيسة وحرية الفرد تبلغ منتهى عمقها وكرامتها التي لا حد لها .

فالبطريرك أو الأسقف يحكم كمن له سلطان وبمنتهى الثقة واليقين لأنه يستند في حكمه على رضى الشعب وحبه . والفرد يقبل الحكم الكنسي ويخضع للتدبير كأنه من الله رأساً ، لأن الذي اختاره الشعب بحريته اختاره الله أيضاً ليقدسه . فالسلطان الكنسي بالنسبة للفرد يعبّر عن اختيار الفرد والله معاً . لذلك فالفرد يقبل السلطان الكنسي بحريته المطلقة ، والكنيسة الأرثوذكسية تقوم كلها على هذه الدعامة . فالسلطان الكنسي فيها لا يعمل صحيحاً إلا في إطار الحرية الفردية .

وليس ذلك فحسب ، بل إن السلطان الكنسي قام أصلاً في الكنيسة ليدعم الحرية الفردية لا ليلغيها ، فكل القوانين وكل التدابير وكل التعاليم تدور حول حقيقة واحدة وهي ضمان حرية الإنسان المسيحي ، ليتحرك على طريق المسيح بدون أي عائق من ذاته أو العالم أو الآخرين إنما في الحدود الإلهية المرسومة في الكنيسة بدقة ، التي قام الأساقفة حراساً عليها مدى الأجيال كلها .

إذن فالإنسان المسيحي بوجه عام ، والخادم بوجه خاص ، ينبغي أن يبني عقيدته على أساس راسخ أنه عضو حي في الكنيسة مسئول مسئولية مباشرة عن قيام السلطان الكنسي فيها قياماً صحيحاً . ثم أنه بالتالي مسئول أمام هذا السلطان يكرمه بكل كيانه ويخضع له بكل إمكانياته ، وكما أن الحرية الفردية تزكي السلطان الكنسي كذلك على السلطان الكنسي أن يزكي الحرية الفردية .

رابعاً : الموازنة بين الجهاد الزمني والسعي نحو الملكوت :

مرة أخرى تقف الكنيسة الأرثوذكسية موقفاً متوازناً بين الولاء للوطن الأرضي والواجبات الأساسية للحياة الزمنية و بين الإخلاص القلبي للوطن السمائي و واجبات الحياة الأبدية . فبينما تحاول الكاثوليكية أن توطن الملكوت على الأرض حتى جعلت من الفاتيكان مملكة زمانية مستقرة ذات حدود ومن البابا ملكاً أرضياً يتبادل السفراء مع الدول و يشتغل بالسياسة ، نجد النقيض في البروتستانتية إذ أنها أجهدت ذاتها وهي تنتظر في لهفة شديدة زوال ممالك الأرض كلها دفعة واحدة وظهور ملكوت السموات بظهور المسيح حتى يختطف الناس من على الأرض ليعيشوا في السماء ...

و بين هذه وتلك وقفت الأرثوذكسية على مدى الأجيال كلها تفصل بإيمانها الراسخ ما بين ملكوت قيصر وملكوت الله : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (مر١٢ : ١٧)، وسلمت ساعة مجيء المسيح لله الآب حسب طلب الرب وانطلقت تخدم في ولاء منقطع النظير لسلاطين العالم سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين أو وثنيين ، وفي نفس الوقت ظلت و بنفس القوة والخضوع والولاء تعبد وتصلي وتنطلق إلى الجبال والقفار والصحاري تكمل واجبها الأقدس نحو ملكوت الله الآتي ، فكانت الأرثوذكسية معلمة العالم كله في فنون التقشف والتجرد والنسك والصلاة . فبقدر ما كانت الأرثوذكسية ــ ولا زالت ــ صاحبة النظرة الأولى والعميقة لبطلان هيئة هذا العالم الذي يزول ، كانت أكثر أقطار الدنيا تمسكاً بوطنها الأرضي وولائها له !! ومعيارها في ذلك قول الإنجيل : « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض ... بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء » (مت٦ : ١٩ ــ ٢٠) .

« فإن سيرتنا نحن هي في السموات التي منها أيضاً ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح » (في٣ : ٢٠) .

« لأن ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة » (عب١٣ : ١٤) .

وهذه بعينها هي نظرة الكنيسة الأولى التي يمثلها القول الذي جاء في الرسالة إلى « ديوجنيتس » :

[فالمسيحيون يعيشون في أوطانهم ، ولكن كنزلاء في العالم ، **يشتركون في كل شيء كمواطنين ، غير أنهم يحتملون كل شيء كغرباء** ، كل أرض غريبة وطنٌ لهم ، ووطنهم كأنه موطن غربة] ٥/٥ .

إن السر العظيم في هذه الموازنة المدهشة بين القدرة على الولاء للوطن الأرضي والولاء للوطن السمائي هو في المستوى الرفيع الذي بلغه الآباء في التقشف والنسك ، والذي من خلاله استُعلنت لهم حقائق وأفراح الملكوت الأبدي ، فعاشوه وهم على الأرض ، واستمتعوا به استمتاعاً يكاد يكون كاملاً وهم يؤدون واجباتهم اليومية بفرح وبلا ملل ، فرسموا أمام الكنيسة طريق الخلود في صميم مهام الدنيا وواجباتها ، وعاشوا الأخرويات والمستقبلات وهم يجاهدون حاضرهم ، فعبروا مضنوكين من ثقل

الأتعاب الجسدية وعلى وجوههم ابتسامة النصرة وفرحة الدهر الآتى .

* * *

ولعلنا في هذا العرض السريع والمختصر لسمات العقيدة الأرثوذكسية نكون قد ألقينا شعاعاً نعتقد بالحق أنه ضئيل جداً ، ولكنه ربما يكون هادياً للقادة والخدام ، ليكتشفوا على نوره الطريق إلى بناء الخادم بناء عقيدياً سليماً متوازناً يتمشى مع روح الأرثوذكسية وعمقها البديع .

الفصل السابع

البناء الروحي للخادم

(٤)

ثالثاً : البناء الأخلاقي للخادم

نحن هنا بصدد الأخلاق ، لذلك يتحتم علينا أولاً أن نسأل : **ما هو موضوع الأخلاق والسلوك من المسيحية أو من المسيح ؟ هل الأخلاق هدف التدين ؟ وهل السلوك غاية رسالة المسيح ؟**

الجواب : كلا ...

فهدف التدين هو الحياة الأبدية ، وغاية رسالة المسيح هي المسيح نفسه ، نعيش معه وله ، والمسيح بالتالي هو الحياة وهو الملكوت الآتي « أنا هو الطريق ... والحياة » (يو١٤: ٦) .

إذن ، ما هو مركز الأخلاق أو ما هي قيمة السلوك لدى المسيحي ؟

الأخلاق وظيفة الروح ، كما أن النظر وظيفة العين . فالعين إذا كانت صحيحة وقائمة في النور تنظر نظراً صحيحاً ، كذلك الروح تماماً فإذا كانت الروح صحيحة وتعيش في المسيح فإنها تفرز أخلاقاً جيدة .

الأخلاق الطيبة هنا نتيجة حتمية لحياة مسيحية صحيحة . لذلك فالإنسان المسيحي يستحيل عليه أن يبحث عن الأخلاق الجيدة أو يسعى وراءها خلواً من المسيح ، المسيح هو سر الأخلاق بالنسبة للمسيحي وهو منبع السلوك .

لذلك فالأخلاق في عرف المسيحية ليست هي مجرد الصدق والأمانة والشرف

والصراحة والإخلاص والدقة في العمل والسلوك، بل هي شيء يفوق هذا كله ويتجاوزه، هي المسيح نفسه، هي أخلاقه وسلوكه. الصدق والأمانة في العرف التربوي الإنساني أمر يتعلق بهذه الحياة الأرضية ليضمن حسنها وبهجتها ويوفر النجاح في تدبير حاجاتها ودوام سعادتها، أما الصدق والأمانة في العرف المسيحي فهو أمر يتعلق بالحياة الأبدية أساساً، فالأخلاق في المسيحية لا تعمل لحسن الإقامة في الأرض ودوامها بل تعمل لضمان عبورها وتجاوزها.

الإنسان الدنيوي، في أفضل مراتبه، يصدق في القول والعمل احتراماً لإنسانيته وتكريماً للعلائق التي تربطه بالناس أو لتزداد شهرته أو تنمو تجارته، أما الإنسان المسيحي فهو صادق لأنه لا يريد شيئاً على الأرض وأمين في القليل لأنه يطلب شيئاً أكثر، يطلب السماء نفسها. المسيحي يخلص في العمل **إخلاصاً يفوق حاجة العمل، بل ويتجاوز قيمة العمل لأن إخلاصه لا ينبع من طموحه في نجاح عمله، بل ينبع من تجاوزه له، فهو يعمل لحساب حياة أفضل من العمل حياة أسمى من الأكل أو الشرب أو المال أو الصيت الحسن «وكل ما فعلتم فاعملوا من القلب كما للرب ليس للناس»** (كو٣: ٢٣و٢٤). لذلك فأمانة المسيحي وصدقه وإخلاصه لا يمكن أن يعوقها خذلان بشري أو خسارة أرضية، ولا يمكن أن يوقفها تهديد بالموت أو حرمان من سعادة دنيوية. إنها أخلاق ليست من هذا الدهر، لذلك فهي تفوق في قدرتها وقيمتها أعلى مستوى للأخلاق الإنسانية اللازمة لهذا الدهر.

وهكذا نرى أن الأخلاق المسيحية وظيفة روحية للنفس البشرية تؤمّن عبورها من حياة حسب الجسد لحياة حسب الروح. وهنا نجد أنفسنا فجأة أمام صميم رسالة الخادم، فالخادم لأنه يعمل طول حياته للإنتقال بنفسه وبالآخرين من حياة حسب الجسد لحياة حسب الروح، لذلك أصبحت الأخلاق بمفهومها المسيحي معياراً حساساً للحكم عليه وعلى خدمته في كل ما يقول ويعمل سواء في مجال الخدمة أو مجال حياته في أسرته أو مجال عمله في مهنته!...

ولكي نحدد معالم الأخلاق المسيحية سواء في طبيعتها أو وظيفتها، يلزمنا في كل لحظة أن نفرق بينها وبين الأخلاق الإنسانية في أعلى مستوى لها.

فبينما تنبع طبيعة الأخلاق الإنسانية من **التوازن والإنسجام** القائم بين مطالب الجسد وفلسفة الفكر، بين الواقع الزمني وتوقعات المستقبل النسبية، بين الشعور واللاشعور، بين العاطفة والمعقول، بين أعواز الإنسان وحاجة الآخرين، نجد أن طبيعة الأخلاق المسيحية تنبع من **التمايز والتباين الشديد** القائم بين الحياة الحاضرة والحياة المستقبلة أو القائم بصورة حرب دائمة لا هوادة فيها بين مطالب الجسد ومطالب الروح، والقائم أيضاً بصورة عكسية تماماً بين منفعة الإنسان في الدنيا ومنفعته في الآخرة، بين إرضاء الناس وإرضاء الله.

وهكذا نجد أنه بينما الأخلاق الإنسانية هي **حصيلة توازن نسبي** بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والواقع الزمني وبين الإنسان والآخرين، نجد الأخلاق المسيحية تبدأ **كحصيلة لمضادة كبرى** بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والواقع الزمني وبين الإنسان والآخرين وتنتهي **بقيام انسجام مطلق فوق النفس وفوق الزمن وفوق الآخرين** «إن كان أحدٌ يأتي إليَّ و(هو) لا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لو١٤: ٢٦).

والعجيب في الأخلاق المسيحية أنها بالرغم من كونها تبدأ بمضادة كبرى للإنسان مع نفسه ومع الزمن ومع الآخرين، إلا أنها تنتهي بانسجام شديد ومطلق مع النفس والزمن والآخرين وذلك بمجرد دخولها مجال الحياة الأبدية والله، لأنها تتخلص مرة واحدة من كل أنانية ومن كل طموح دنيوي ومن كل تعالٍ وكبرياء؛ الأمور التي تلوث القيمة الأخلاقية، أياً كانت، والتي يستحيل على الأخلاق الإنسانية الطبيعية أن تتخلص منها بالجهد الذاتي بأي حال من الأحوال.

فالإنسان المسيحي حينما يتمسك بالصدق والأمانة والإخلاص تمسكاً شديداً لا هوادة فيه، **فهو إنما يقاوم أنانية نفسه، ويصارع حاجة وطموح الزمن، ويتحدى مستواه إزاء الآخرين**، لكي يصل إلى ما فوق نفسه وما فوق الزمن وما فوق الآخرين — أي يصل إلى الله وإلى الإنسجام المطلق مع الحياة الأبدية وحينئذ يعود إلى نفسه بغير حب ذات أو أنانية، ويعود إلى الزمن بغير أطماع وطموح، ويعود إلى الآخرين بغير منافسة أو تعالي... وهنا تبدو الأخلاق المسيحية ليست وظيفة روحية للنفس وحسب

ولكن طريقاً سماوياً عبر الأرض يضمن للإنسان نجاحه في العبور على كل حال وفي أشد الظروف تعسراً...

وهنا يهمنا جداً أن نظهر الفوارق الخطيرة بين الأخلاق الإنسانية الطبيعية في صورتها الفاضلة المنسجمة مع ذات الإنسان ومع حاجة الزمن ومع مزاج الآخرين وبين الأخلاق المسيحية في صورتها المضادة للذات والمضادة للزمن والمتجاوزة لمزاج الآخرين... فالأخلاق الإنسانية الطبيعية وإن كانت تبدو في وضعها الفاضل بصورة جمالية تغذي مبدأ المنفعة العامة للإنسان على الأرض إلا أنها تعود وتفرغ الروح الإنسانية من كل قيمة روحية ومن كل تعطش نحو الله والحياة الأبدية بل إنها تجعل نفس الحياة على الأرض غير جدية، بمجرد أخلاق للمنفعة أو للزينة، كتمثيلية لا تعيش بعد إسدال الستار إلا في خيال الناس.

في حين أن الأخلاق المسيحية بصرامتها تجاه الذات وتجاه الزمن وتجاه الآخرين ترفع من قيمة البيئة الإنسانية ونفسية الإنسان عموماً لتجعلها فوق مستوى المنفعة واللذة والتراب، **تجعل الصدق أهم من العمل والأمانة أهم من النجاح، والإخلاص أسمى من الصداقة، والعدل أعلى من المصلحة العامة**. هنا الأخلاق المسيحية تبدو كضرورة بالغة القيمة بالنسبة للإنسان فالعلم والأدب والفن والسياسة والتربية وكل نشاطات الإنسان العقلية والنفسية والجسدية تبدو فارغة ومضللة ومتلفة للروح الإنسانية بدون العنصر المسيحي للأخلاق...، في حين أن العلوم والفنون والآداب والسياسة وغيرها إذا التحم بها العنصر الأخلاقي بوضعه المسيحي المتسامي فوق الأنانية واللذة والمنفعة العامة، فإنه يجعل منها مجالات رائعة للبذل والحب وبالتالي يستخدمها للإنتقال بالبشرية من أطوارها الإنطوائية المادية المتخلفة إلى المستويات الروحية الراقية التي تصبو إليها.

وبعد هذه المقدمة البسيطة لمفهوم الأخلاق في المسيحية، يلزمنا أن نسأل:

هل الأخلاق في المسيحية قانون؟ أو بمعنى آخر هل هي إلتزام؟

هنا يتحتم علينا أن نفهم أن المسيحية **طبيعة جديدة للإنسان** فوق مستواه الأرضي ولكنها تنسجم أصلاً مع خلقته الأولى لأن الإنسان خُلق أصلاً ليعيش مع الله

وليحيا معه إلى الأبد . والإنسان لما سقط وحرم من الحياة مع الله وقع ، في الحال ، تحت القصاص بصيغة أوامر محددة قاطعة ملزمة ، لتهذب طبيعته الحيوانية وتمنعه من التمادي في السقوط والبعد عن الله : لا يكن لك آلهة أخرى غيري ــ تحب الرب إلهك من كل قلبك ــ تحب قريبك كنفسك ــ أكرم أباك وأمك ــ لا تقتل ــ لا تسرق ــ لا تزن ــ لا تحلف باسم الرب باطلاً ــ لا تشهد شهادة زور ــ لا تشته امرأة قريبك ــ لا تشته مقتنى غيرك .

ولكن المسيح جاء ووهبنا ميلاداً جديداً لطبيعة جديدة روحانية فائقة وأعطانا فيها الحياة الأبدية التي كانت لنا عند الله والتي كنا قد فقدناها ، لقد رفع عنا القصاص بأكمله وبالتالي ألغى الناموس كله « قد كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان ، ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب » (غل٣: ٢٤، ٢٥). ولأن الأوامر والوصايا الأخلاقية (الناموس) في العهد القديم روحانية بطبيعتها ، لذلك فإنها أصبحت غير منسجمة مع طبيعتنا الساقطة ، ولهذا أصبحت بالتالي كقانون تأديبي يعاقب كل من يتعداه بلا رحمة . ولكن الآن ونحن نعيش مع الله في المسيح يسوع بطبيعة حرة منسجمة مع الروح ، في جدة الحياة ، في قيامة حقيقية في ملكوت سري داخل القلب ، لذلك لسنا بعد تحت قانون أخلاقي مؤدب ؛ إننا نعيش مع الله في المسيح بأخلاق المسيح ، لنا فكر المسيح وطاعته وحبه وروحه ، فالطبيعة الجديدة هي التي أفرزت الأخلاق المسيحية !...

الأخلاق المسيحية إذن ليست هي قانوناً مسلطاً علينا بل وصايا محببة تنسجم مع روحنا ، مع تطلعاتنا إلى السماء ، مع طبيعتنا الجديدة . محبتنا للمسيح واتحادنا به وشركتنا في الحياة الأبدية جردت القانون الأخلاقي الأول من سلطانه وسطوته وإلزامه وعقوبته بل ومن طبيعته . فالناموس الذي وضع أصلاً ليهذب الطبيعة الحيوانية لم يعد صالحاً لتهذيب الروح « المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح » (يو٣: ٦)، محبتنا للمسيح وشركتنا في النور جعلتنا نتجاوز الأمر بعدم القتل إلى عدم البغضة أصلاً بل ونتجاوز بغضة الأعداء إلى محبتهم . تغير الناموس هنا مرتبط بتغير الطبيعة ، لقد ذاب القانون الأخلاقي تحت وطأة المحبة الملتهبة للمسيح في الوضع

الجديد . الأخلاق المسيحية لا تقع الآن تحت بنود قانون يجاهد الإنسان ليعيش بها وإنما هي صفات ملازمة لطبيعة الإنسان الجديدة لا يستطيع أن يحيا بدونها .

محبة المسيح جعلت الصدق طبيعة جديدة للإنسان ،
محبة المسيح جعلت الأمانة وظيفة حيوية للروح لا يمكنها أن تعيش بدونها ،
محبة المسيح جعلت الإخلاص والوضوح والصراحة في كل شيء صفة ملازمة للإنسان قولاً وفكراً وعملاً ، يموت إن هو خالفها أو تخلى عنها .

إذن ، فالأخلاق المسيحية لم يعد لها روح القانون الأول وصرامته بل هي طبيعة الإنسان الجديد ، هي مسرته ، هي حبه الذي يمارسه في كل المجالات ، هي سر المسيح الجديد العامل والفعال في قلب الإنسان المولود من الروح ، هي الأجنحة النورانية التي وهبت من الروح القدس جديداً للنفس البشرية لتلبسها وتعبر بها من الأرض إلى السماء .

إذن ، كيف تُبنى الأخلاق والسلوك في المسيحية ، أبالقوانين والتداريب والجوائز والعقوبات ؟

مستحيل طبعاً ، لأن هذه الوسائل لا تبني إلا الأخلاق الطبيعية التي تتناسب مع الطبيعة الإنسانية فقط ، ولا تخط في النفس إلا انطباعات من السلوك تتلاءم مع قدرات النفس وحسب . فالقوانين والتداريب والجوائز والعقوبات تشكل الطبيعة وتهذبها وتدرب السلوك وتحدده ، ولكنها يستحيل أن ترفع الطبيعة فوق ذاتها أو تخلق أنواعاً روحية من السلوك تفوق الطبيعة الحيوانية .

صاحب السيرك يلجأ للقوانين والتداريب والجوائز والعقوبات ليرفع من مهارات الحيوانات إلى أقصى ما جبلت عليه طبيعتها من طاقات وحركات وذكاء ، ولكن يستحيل على صاحب السيرك أن يخلق في الحيوانات بالتداريب طبائع فوق طبيعتها كأن تتكلم مثلاً أو تضحك ...

الأخلاق المسيحية المطلوب للنفس المسيحية أن تلبسها ليست أصلاً من طبيعة

الإنسان الحيوانية ، إنها صفات روحانية ، لذلك يستحيل أن تنمو طبيعياً أو تترقى بالتدريب . إنها ليست مهارات بل مواهب : الصدق في المسيحية موهبة ، الأمانة في الفكر والقول والعمل موهبة ، والإخلاص والوضوح والصراحة موهبة ، المحبة الطاهرة التي بلا رياء موهبة ، هذه المواهب تعطى بالروح وتنمو بالروح وترسخ في النفس البشرية بالروح .

ولا سبيل إطلاقاً أن تنمو الأخلاق المسيحية وترسخ في النفس إلا بالعشرة القلبية مع المسيح بالصلاة الدائمة والحب ، حينما نصمم أن نحيا بالروح ونسلم أنفسنا وعقولنا لكي ننقاد بالروح ، حينئذ يأخذ الروح ما للمسيح و يعطينا .

الخادم يصير صادقاً صدقاً مسيحياً حينما يذوق صدق المسيح فيسري في عروقه ويختم قلبه وفكره .

الخادم يصير أميناً أمانة مسيحيه حينما تُستعلن له أمانة المسيح وتنسكب في أحشائه وتختم كل أعضائه .

الخادم يصير مخلصاً وفياً واضحاً صريحاً طاهراً حينما يستقر المسيح في قلبه ويملك ويختم على عواطفه و وجدانه .



الفصل الثامن

البناء الروحي للخادم

(٥)

رابعاً : الإختبار الروحي في حياة الخادم

إن كل ما قدمناه عن بناء الخادم في كافة المجالات النفسية والروحية ، يمهد للإختبار الروحي الصحيح ، والإختبار الروحي في الحياة المسيحية كما اختبرته الكنيسة الأولى وكما عاشه الآباء الروحيون هو قوة الحياة الجديدة . ونحن نقدم هنا المفاعيل أو الإنطباعات التي تلازم هذا الإختبار:

١ ــ شعور روحي جارف بحضور الله .
٢ ــ انفتاح القلب بفرح لذيذ لكلمة الإنجيل تصل إلى حد الجوع والدموع .
٣ ــ تصديق لوعد كلمة الله بيقين شديد يبرز عمل الرجاء إلى أقصى قوته .
٤ ــ الإحساس الواقعي بشخص المسيح الحي ، كرفيق حلو، فتصبح محبته كالنار في القلب ...
٥ ــ تفجر الحاسة الإيمانية بنشاط ذهني وجسدي وروحي تجعل الإنسان كارزاً بلا أي مؤهلات سابقة ، بل وعلى مستوى الإستعداد للشهادة والبذل حتى الموت .
٦ ــ التيقن من سكنى الروح القدس في القلب ، والتيقظ لأهمية قيادته والإعتماد عليه .
٧ ــ انتباه حاسة إدانة النفس وكشف خطاياها أولاً بأول بتدقيق لا هوادة فيه .

و يؤسفنا أن هذه المفاعيل أو الإنطباعات الروحية يستحيل أن يوضع لها منهج بالكلام ، فهي مفاعيل سرية لإختبار روحي عميق لا تستطيع الكلمات أن تدخل

الإنسان إليه . ومهما دققنا في الوصف فهو لا يمكن أن يحيط به أو يصل إليه .

وربما تستطيع الكلمات أن تصف هذه المفاعيل وتشوق القلب إلى قيمة هذا الإختبار الروحي وانطباعاته ، فتقنع الإنسان بضرورتها . ولكن يظل السؤال : كيف يذوق الإنسان الإختبار الروحي ؟ فهذا عمل من اختصاص الإنسان مع الروح القدس .

مواصفات للإختبار الروحي

المواصفة الأولى

مدى التحرر الذي ناله الإنسان إزاء العالم الحاضر:

الذي نحذر منه القارىء لئلا يقع فيه هو أن الإختبار الروحي بانطباعاته السابقة ليس وليد عواطف ولا هو يأتي نتيجة تداريب ، ولكنه « **طريق** » و« **حق** » و« **حياة** » .

طريق يستحيل أن تطأه أقدامنا إذا كانت سريعة المشي في طريق العالم الواسعة .
وحق لا يمكن أن ينكشف لروحنا إذا كانت روحنا قد ارتبطت بأباطيل العالم .
وحياة لا يشرق نور مجدها علينا إذا كنا قد اكتفينا بحياة الدنيا وأمجادها .

وواضح من هذا أن الإختبار الروحي يتطلب جهداً سلبياً ضد العالم . إذن ، فالدخول إلى الإختبار الروحي يتوقف على مدى تحرر الإنسان داخلياً من الإرتباطات التي تشده إلى الأرض ، وتحرر الإنسان هنا يتوقف على مدى جهاد الإنسان مع روح الله كل يوم ، بل كل ساعة ، بل كل لحظة ضد طرق هذا العالم الملتوية وأباطيله وأمجاده الكاذبة .

يقول القديس مقاريوس من جهة هذا الإختبار الروحي كلمات جديرة بالإنتباه :
« النفوس التي يكون حبها لله متأججاً لا ينطفىء تكون مستحقة للحياة الأبدية ،

لذلك تصبح أهلاً أن تعتق من الشهوات وتنال بصورة كاملة **شركة الوحدة السرية غير الموصوفة مع الروح القدس في ملء النعمة** (الإختبار الروحي) . أما النفوس المدللة فبسبب كونها تعيش في الجسد ولا تطلب القداسة بمثابرة وصبر تجدها لا ترجو أن تشترك مع روح العزاء (الباراكليت) ولا ترجو البصيرة أو الملء أو الكمال ، ولذلك فهي لا تنال الإنعتاق من الشهوات ، ومثلها النفوس التي بعد أن تكون استحقت عمل النعمة الإلهية تنخدع للشر وتستسلم إلى الإستهتار والتهاون » .

أي أن الإختبار الروحي يبدأ بحب نحو الله متأجج يدوم بالمثابرة ، هذا الحب المتأجج كفيل أن يعتق الإنسان من شهواته . وحينئذ يتأهل للدخول إلى الإختبار الروحي الذي يسميه القديس مقاريوس « **شركة الوحدة السرية غير الموصوفة مع الروح القدس في ملء النعمة** » .

المواصفة الثانية

مدى إرتباط الإنسان بالمسيح :

المسيح يطلب بل يطالب كل من يتبعه ، أو بالحري كل من يسعى نحو الخلاص أن يحدد موقفه منه أولاً وقبل كل شيء !

+ « أتحبني ؟ أتحبني ؟ أتحبني ؟ » (يو٢١ : ١٥ـــ١٧).
+ « بعْ كلَّ مَا لَكَ... وتعالَ أتبعني... » (لو١٨ : ٢٢).
+ « دَعِ الموتى يدفنون موتاهم وأما أنت فاذهب ونادِ بملكوت الله... » (لو٩ : ٦٠).
+ « مَن أحب أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقني . ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني ... » (مت ١٠ : ٣٧).
+ « إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً ... » (لو١٤ : ٢٦).
+ « إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ... » (يو١٤ : ١٥).

+ «أما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة...» (مر١٤ : ٣٧).
+ «ثم قال للتلميذ : هوذا أمك ...» (يو١٩ : ٢٧).

إذن ، فالمسيح يطالبنا بموقف واضح محدد من جهة علاقتنا به حتى ندخل معه و بواسطته إلى حقيقة وقوة الخلاص الذي نسعى إليه . ومن كلام المسيح يبدو لنا أنه لا يرضى ولا يقبل إلا أن ترتفع علاقتنا به لتصبح أعلى من كل علاقة مع أي إنسان آخر مهما كان هذا الإنسان ، وأهم من كل شيء آخر في الدنيا مهما كان هذا الشيء حتى ولو كان رزقنا بل حياتنا... «لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ » (مت١٦ : ٢٦)...

هنا في الواقع **دخول إيجابي للتحرر** الذي حاولنا أن نبلغه في « الوصفة الأولى » عن طريق سلبي ، لأنه بمجرد أن نجعل المسيح في حياتنا أهم من كل إنسان وأهم من كل شيء حتى الحياة نفسها حينئذ ينكشف لنا **الحق** تلقائياً أو كجزاء ومكافأة حاضرة وسريعة « والحق **يحرركم** » .

في الوصفة الأولى نجاهد مع الله ضد الدنيا وشهواتها وضد الجسد وشهواته لنتحرر من نيرهما ، وفي الوصفة الثانية نرفع المسيح في حياتنا وفي ضمائرنا فوق الدنيا كلها وفوق النفس فندخل إلى الحق مباشرة وتحل فينا قوته فنتحرر تلقائياً من كل ما هو باطل...

ولكن أي الوصفتين أسبق ؟ أو لماذا جاء الجهاد السلبي قبل الجهاد الإيجابي ؟ هذه ضرورة في الكتابة ، لأن الإثنين ينبغي أن يعملا معاً و بالتالي يلزم أن يبدآ معاً...

ولكن الذي ننبه ذهن القارىء إليه أن تحديد موقفنا من المسيح هو بحد ذاته قوة إبتدائية دافعة تجعلنا ندخل إلى الحق من أسرع وأقصر طريق . ومعرفة الحق الذي في المسيح ليست نظريات وعظية بل قوة فائقة ، قوة محررة يفوق سلطانها قوة الفعل والمنطق والإرادة والطبع والعادة !... فقوة الحق الذي نناله بواسطة علاقتنا الحبية مع المسيح هي **قوة حياة** بل هي ملء الحياة الأبدية التي تتحدى الموت...

إن قوة الشهداء الذين استشهدوا على إسم المسيح استمدوها من معرفة الحق الذي

في المسيح الذي أحبوه وعاشروه ولم يكن يدري معذبوهم أن الحق الذي فيهم هو هو الحياة الأبدية التي حررتهم من كل إرتباطاتهم بالدنيا ومن الخوف من الموت ، فكان دمهم شهادة لصدق اختبارهم الروحي .

وهكذا نرى أن علاقتنا بالمسيح تحدد مدى صلاحيتنا للدخول في الإختبار الروحي .

المواصفة الثالثة

مدى استعداد الإنسان لمقابلة الله ؟

الإختبار الروحي هو دخول في الحضرة الإلهية . فما هو إستعدادنا للمواجهة ؟

قد يكون هناك اشتياق شديد للوجود مع الله وتوق إلى الحديث معه ، بل وقد يكون هناك سؤال جريء لرؤ ياه ، ولكن ما هو مدى إستعدادنا الداخلي لهذا الوجود أو الحديث أو الرؤ يا ؟

ثلاث عوامل أساسية تمهد للمواجهة :

١ ـ بساطة القلب أو نقاوته :

وهنا لا ندخل في مفهوم البساطة والنقاوة النسكية ، ولكن في الإختبار الروحي بساطة القلب تعنى تصديق ما لا يصدق ، والإيمان بالمستحيل فكراً وعملاً ، والإيقان بأمور لا ترى ...

ومن هذا يتبين أن العقل المحاجج والفكر المتمسك بالمنطق والإرادة الجبانة معطلات كبيرة في طريق الإختبار الروحي .

٢ ـ سرعة القدرة على تخطي الحوادث وتجاوز المظاهر :

فالله يتواجد في كل الظروف وفي كل المواقف وفي كل مراحل الحياة فإذا لم يكن لدينا إستعداد أساسي لمواجهة الله في الحزن والألم والمرض والضيقة والإخفاق بنفس

الإنفتاح و بنفس السرعة التي نراه فيها في الفرح والسلام والصحة والمسرة والنجاح ، فإن دخولنا في الإختبار الروحي يتخلخل و يضعف حتى يتلاشى . فالوجود مع الله لا ينبغي أن يوقفه أي رسالة أو حديث آخر مهما كان هاماً أو خطيراً ، ورؤ ية الله لا ينبغي أن تمسحها من ذاكرتنا أو من قلبنا أي رؤ ية أخرى مهما كانت جميلة أو مسلية أو أخاذة .

٣ ــ الإستعداد لمقابلة الله في الآخرين :

« مَنْ يقبلكم يقبلني » (مت ١٠ : ٤٠)، « الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم » (مت ٢٥ : ٤٠).

من الشروط الأساسية التي لا يمكن تجاهلها في الإختبار الروحي أن يكون لدينا منذ البدء الإستعداد القلبي لرؤ ية الله في الأخ المتألم أو الأخت المتألمة ، في الطفل اليتيم الجائع ، في الأرملة المسكينة المحتاجة ، في مر يض المستشفى ، في طر يح الأرصفة على الشوارع ، في الغريب ، في العاجز، في المضطهد ، في المظلوم ، في كل إنسان بلا تمييز...

هكذا شاء المسيح الذي هو صورة الله أن يجعل من هؤلاء البائسين صورة له ... حتى تصبح مقابلة المسيح و بالتالي مقابلة الله عبر خدمة هذه الوجوه الحز ينة الجائعة المظلومة والمر يضة مقدمة سهلة للدخول في أعماق الخبرة الروحية . فالأعضاء الضعيفة والمتألمة في جسم المسيح المصلوب للعالم ينبغي أن تبرز في مقدمة إهتمامنا إن كنا نر يد أن ننال شرف رؤ يا المسيح الممجد...

« يارب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك . ومتى رأيناك غر يباً فآو يناك ، أو عر ياناً فكسوناك ومتى رأيناك مر يضاً أو محبوساً فأتينا إليك ؟ فيجيب الملك و يقول لهم : الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم » (متى ٢٥ : ٣٧ــ ٤٠). هنا يقدم لنا المسيح الإختبار الروحي في أبسط وأعمق صورة ...

المواصفة الرابعة

مدى إستعداد الإنسان للشهادة للحق :

معروف أن الدخول في الإختبار الروحي معناه الدخول في « الحق » الذي هو ملء وقوة الحياة الجديدة التي وهبها لنا المسيح .

كما أن ميلاد الإنسان في هذا العالم يضع على عاتقه واجبات . ومن أهم هذه الواجبات وأولها هو الدفاع عن هذه الحياة ضد كل من يريد أن ينزعها منه ، كذلك بالنسبة للإنسان الذي يريد أن يدخل مجال « الحق الإلهي » والحياة الأبدية فإن أول واجب يوضع عليه هو أن يكون على إستعداد للشهادة للحق ، **أولاً** شهادة ضد الباطل أو ضد كل ما يريد أن ينزع عنه هذا « الحق » ، **ثانياً** شهادة لكل من يريد أن يعرف الحق الذي فيه أو من كان على استعداد لقبوله .

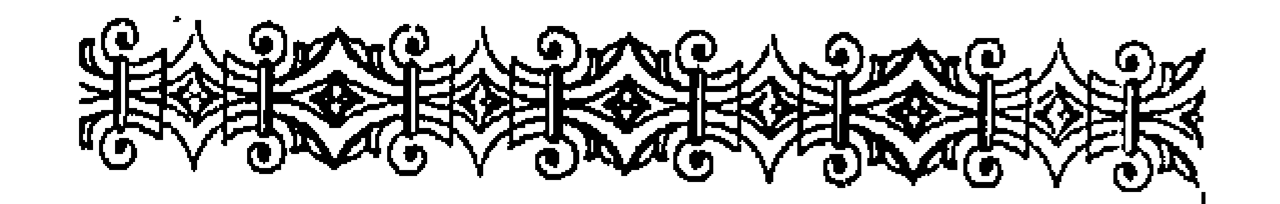
لذلك فالإختبار الروحي يتعذر حدوثه بالنسبة لإنسان يمالىء الباطل ويخشاه . كذلك فإن الإختبار الروحي يتعثر جداً بالنسبة لإنسان يرفض أن يكون على مستوى الشهادة الكارزة « **نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا** » (أع ٤ : ٢٠) . هنا ، الشهادة ليست إلزامية لأنها واجبة أو ضرورية فقط أو لأنها عمل فاضل أو فضيلة أو لإرضاء الله أو الضمير ، ولكن لأن الشهادة هي شهادة « **للحق** » ، فهنا في الواقع إستحالة أن يمتنع الإنسان عن الشهادة للحق لو أنه في « الحق » أو « الحق فيه » .

لذلك أصبح إستعداد الإنسان للشهادة « للحق » من كل القلب و بكل الفكر والإرادة والقوة مواصفة أساسية للدخول في الإختبار الروحي .

الخادم إذا دخل الإختبار الروحي بحسب مواصفاته السابقة يصبح موصلاً جيداً لله ولكلمة الإنجيل وشاهداً لا يجارى للحق الإلهي .

الكنيسة الأولى كانت مزدحمة بشهود أقوياء أفحموا الفلاسفة والعلماء وأذهلوا

القضاة وأرعبوا الحكام والولاة بمنطقهم وحجتهم وعلمهم وصلابة إرادتهم مع بساطة الحملان ووداعتهم ، إنها كانت مفاعيل الخبرة الروحية للحياة مع المسيح .



يُطلب من

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٥٠ " أ " شارع شبرا ـ تليفون رقم ٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ١٣ شارع الشهداء بالمنشية تليفون رقم ٤٨٤٠١١٠

وجميع المكتبات المسيحية

يتحتم علينا ونحن نقدم هذه المقالات أن ننبه القارىء إلى حقيقة غاية في الأهمية وهي الفرق الكبير بين التعليم بمفهومه الحديث الآن وبين الخدمة في مفهومها المسيحي الأصيل.

أما التعليم حتى ولو كان في الأمور الروحية فهو يختص بتهذيب الفكر ليتشبع بأسلوب الإنجيل وتدريب الملكات الإبداعية ... وهذا بالتالي ينتهي كله إلى الإعلاء بالشخصية على أساس الكفاءة الذاتية والتفوق على الآخرين في الأمور الروحية.

وأما الخدمة فهي تختص بوعظ النفس وتبكيتها وضبط الغرائز والسيادة عليها لإطلاق الروح من عبودية الأهواء والنزوات والدخول في حالة توبة نشطة دائمة لتقبل نعمة الله. وهذا بالتالي ينتهي إلى تنازل عن الذات وتسليم النفس لله وبلوغ حالة من الصدق في السلوك مع الناس والأمانة في العبادة لله مع خشوع وتقوى.



الطبعة السابعة – ٢٠٠٠
الثمن ٤ جنيهات